كتاب جنة الرضا في التسليم بما قدر الله وقضى (*)

لأبي يحيى محمد بن عاصم

مصدر من مصادر التاريخ الأندلسي

سعد عبدالله البشري
كلية الشريعة
جامعة أم القرى
مكة المكرمة

يعاني الباحثون والمؤرخون في تاريخ الأندلس من قلة المصادر التاريخية وندرتها، التي تتحدث عن الثلث الأخير من القرن الثامن وطوال القرن التاسع الهجريين، ومن المعروف أنه بعد وفاة ابن الخطيب ٧٧٦هـ، لم يظهر في الأندلس مؤرخون أعطوا كما أعطى ابن الخطيب، أو كان لهم مشاركة في إثراء التاريخ الأندلسي في تلك الحقبة، التي لا نبالغ إذا قلنا إنها حقبة شبه غامضة، ويلفّ الظلام كثيرًا من أحداثها ووقائعها، لأنها افتقرت إلى التاريخ ، وتسجيل الوقائع فضاع الكثير من المعلومات والمادة التاريخية، التي كانت كفيلة - لو سلمت من الضياع - بإنارة تاريخ الأندلس في عصوره الأخيرة، ولهذا يضطر الكثير من الباحثين إلى تلمس المادة التاريخية في مصادر أخرى غير المصادر التاريخية، ككتب الأدب، وكتب الفقه، والفتاوى، وغيرها من مجالات المعرفة المختلفة. كما يلجأ بعض آخر إلى الاعتماد على المصادر الأجنبية لتاريخ الأندلس، كالمصادر والوثائق الإسبانية المعاصرة للفترة، وإن كان على الباحث أن يكون على حذر، لا سيما أن تلك الفترة شهدت صراعًا عسكريًا شديدًا بين المسلمين والإسبان، دفع هؤلاء إلى لون من التعصب الذميم ضد كل ما يمت للمسلمين، وتاريخهم في الأندلس فشوهت، وطمست كثير من الحقائق التاريخية.

وبناءً على ما تقدم فقد سعى الباحث إلى محاولة الإسهام في تسليط الضوء على الأهمية التاريخية لأحد المؤلفات الأندلسية، التي ألفت في القرن التاسع الهجري، على الرغم من أن محور الكتاب يدور حول الوعظ والزهد، وهذا الكتاب هو: جنة الرضا في التسليم بما قدر الله وقضى ، للأديب الفقيه أبي يحيى ابن عاصم، وسنحاول في الصفحات التالية تبيين أهمية الكتاب، وقيمته التاريخية، وما ضمه من مادة تاريخية نادرة عن كثير من وقائع القرن التاسع الهجري وأحداثه.

المؤلِّف

نسبه - ثقافته - حياته السياسية وأحوال عصره:

أبو يحيى، محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن عاصم القيسي الغرناطي، ولا يعلم تاريخ ميلاده إذ إن المصادر التي ترجمت له لم تحدد سنة مولده، غير أن هناك قرينة مهمة تفيد أنه ولد قبيل انصرام القرن الثامن الهجري ببضع سنين، فهو يشير إلى أنه كان في زمن الحداثة، وعدم استحكام العقل عندما اعتقل والده أبو بكر محمد بن عاصم سنة ٨١٤هـ/١٤١١م (١). فيمكن استخلاص عمره التقريبي آنذاك من خلال وصفه بالحداثة وعدم استحكام العقل بما يقارب الخامسة عشرة، أو يزيد عليها قليلاً(٢).

وفيما يتصل بثقافته، فقد نشأ أبو يحيى نشأة علمية، إذ إن أسرته كانت من الأسر العلمية المرموقة، التي برز منها عدد من العلماء ورجال السياسة، ومن الطبيعي أن يكون لأفرادها اهتمام بالعلم والمعرفة، فكان من بينهم أبو يحيى ابن عاصم، الذي تلقى العلم على أيدي كثير من

العلماء ، قال المقري: «قاضي الجماعة بها - أي غرناطة - كان رحمه الله من أكابر فقهائها، وعلمائها، ورؤسائها، أخذ عن الإمام المحقق أبي الحسن ابن سمعة، والإمام القاضي أبي القاسم ابن سراج، والشيخ الراوية أبي عبدالله المنتوري، والإمام أبي عبدالله البياني (٣) .

وقد أثنى عليه عدد من المؤرخين ووصفوه بالعلم والبلاغة والفصاحة والتفنن في العلوم فهو (الكاتب البليغ الخطيب الجامع الكامل الشاعر المُفْلِق الناثر الحجة خاتمة رؤساء الأندلس بالاستحقاق)(٤) و هو (الأستاذ المحقق العالم الحافظ النظار، المتحلي بالجلال والوقار، نخبة الأعيان فريد العصر والأوان، فصيح القلم واللسان المتفنن العمدة الشهير الوزير الخطير، تولى اثنتي عشرة خطة في وقت واحد منها القضاء والكتابة والوزارة والإمامة والخطابة) (٥).

وفيما يتصل بحياته السياسية فقد تولى أبو يحيى الوزارة للسلطان الغالب بالله محمد بن نصر الملقب بالأيسر، وكانت أحوال مملكة غرناطة في مطلع القرن التاسع الهجري تدعو للأسى، وتبعث على القلق، والترقب من المصير المحتوم نحو الانهيار وسقوط آخر معقل من معاقل الإسلام في أيدي النصارى، وكان عصر السلطان الأيسر مثالاً واضحًا على حالة الفوضى، والقلاقل والتقلبات العاصفة المنذرة بالفناء فيذكر المؤرخون أن السلطان الأيسر تعرض لثورات جامحة خلعته عن كرسي الحكم ما يقارب خمس مرات، فعندما تولى الحكم لأول مرة عام ٨٢٢هـ/١٤١٩م، بقي فيه بضع سنين ثم ثار عليه محمد بن يوسف الملقب «بالزغير» عام ٨٣٠هـ/١٤٢٧م، وبمساعدة ملك قشتالة، وملك تونس، وأسرة بني سراج عاد الأيسر إلى الحكم عام ٨٣٢هـ/١٤٢٩(٦) .

وفي عام ٨٣٥هـ/١٤١٣م ثار عليه يوسف بن المول، غير أن الأيسر عاد إلى سدة الحكم بعد أشهر معدودة، وكان ابن المول قد تغلب على الأيسر بمساعدة ملك قشتالة خوان الثاني(٧) وفي أوائل جمادى الأولى ٨٤٩هـ/١٤٤٥م، ثار عليه ابن أخيه محمد بن عثمان الأحنف، وكان واليًا على المرية، وتمكن من خلع الأيسر للمرة الثالثة (٨)، ورغم ذلك فقد تمكن الأيسر من العودة إلى حكمه، بيد أن الأمر لم يستقر، فقد ذكر ابن عاصم أن ابن أخت الأيسر، ويُدعى: أبو الحجاج يوسف بن أحمد ثار على السلطان الأيسر عام ٨٤٩هـ/١٤٤٥م، ونجح في الاستيلاء على الحكم، وعلى عهده اتجه أحد أمراء بني نصر، ويدعى الرئيس أو الوليد إسماعيل وكان لاجئًا في قشتالة اتجه إلى غرناطة، محاولاً الإطاحة بيوسف بن أحمد الذي لجأ إلى المرية عند سماعه بدخول إسماعيل إلى وادي آش، وفي خضم هذا الصراع، مات السلطان يوسف بن أحمد ٨٥١هـ/١٤٤٧م فيعود الأيسر للحكم(٩) واستمر حتى ٨٥٧هـ/١٤٥٣م حيث ثار عليه الأمير سعد بن الأحمر، مما أجبر السلطان الأيسر على اللجوء إلى البشرات (جنوب غرناطة)، وحاول استرداد عرشه غير أنه وقع أسيرًا في يدي الأمير سعد، الذي أمر بقتله في أواخر عام ٨٥٨هـ/١٤٥٤م (١٠).

وكانت كل عودة للأيسر إلى الحكم في هذه الصورة المشحونة بالأحداث والقلاقل المروعة، مدعاة إلى تعجب وزيره ابن عاصم، الذي قال: «ولكنه طالما عورض في الملك فكبا معارضه لفيه، وأتيحت له النصرة من محل لم يحسبها فيه، وشد ما احتال على مضرته غير واحد فانعكست عليه حيلته، وتوسل إلى مكروهه فطاحت في سبيل الانقلاب عليه وسيلته» (١١).

آثار ابن عاصم العلمية

ألف ابن عاصم عددًا من الكتب والرسائل أهمها كتابه «جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى» وكتابه الآخر «الروض الأريض في تراجم ذوي السيوف والأقلام والقريض» وله رسائل وشروحات في الفقه (١٢) .

كتاب جنة الرضا - دواعي التأليف - موضوعه وأهميته التاريخية :

الحق أن تأليف ابن عاصم لكتابه جنة الرضا، كان ردة فعل لما كان عليه عصره من قلاقل، وفتن واضطرابات، وما تخلل الدولة من مؤامرات، ودسائس، وانقلابات

متتالية، زرعت الخوف والروع في قلب المؤلف، وأورثته إحساساً بخطورة الحاضر، وغموض المستقبل، وغدر الأيام، وتلون الزمان، فلجأ إلى الكتابة حول هذا الموضوع، موضحًا أنواع البلاء والمحن التي قد يقع فيها الإنسان، وبيَّن في كتابه درجات البلاء ، ومدى تحمل الإنسان أو هلاكه في إحداها، ثم رسم منهجًا لتوقي ألوان البلاء، وترسَّم في ذلك طريقة السلف في مواجهة شدائد وكوارث الحياة، وذلك باللجوء إلى الله والتمسك بما ورد عن الرسول ﷺ من ألوان الدعاء، والذكر الذي يُرجى من ورائه دفع البلاء والتخفيف من وطأته، وحشد مع ذلك أقوالاً كثيرة للعلماء والحكماء والصالحين، وسرد ضمنها حكايات، وقصصاً برهن من خلالها على صحة ما أشار إليه من آراء وأفكار، فكتابه على ذلك من الكتب الدينية التي تصنف تحت عنوان المواعظ والرقائق والزهد، وتشوبه مسحة واضحة من الأدب، لما تضمنه من شعر غزير، وإشارات أدبية، ولمع من أخبار الأدباء والشعراء.

وجدير بالذكر أن الكتاب وإن غلب عليه ما ذكرناه من الطابع الديني، والأدبي إلا أنه تضمن معلومات، وإشارات تاريخية مهمة ونادرة تتعلق بتاريخ الأندلس، ومنها معلومات قيمة فريدة تتصل بتاريخ بني نصر في غرناطة، وهو الأمر الذي دفع الباحث إلى تلمس هذا الجانب، ومحاولة تجليته، وإفراده بهذه الدراسة التي يمكن أن تتفرع إلى ميادين متعددة.

في علم السياسة

من المعلومات القيّمة التي يضمّها الكتاب ما يتعلق بعلم السياسة، فقد بدا ابن عاصم في هذا الميدان ذا نظرات سياسية حكيمة، وآراء صائبة، وخبرات ناضجة في تدبير أمور الدولة، وتوجيه النصح لمن أسندت إليه ولاية، أو عمل في جهاز الدولة، فيقول ابن عاصم: (إن آكد ما يجب عليه نصر المظلوم، وإبلاغ السلطان حاجة من لا يستطيع إبلاغها، وما أشبه ذلك مما عَد الناس أنه زكاة الجاه، وذلك بعد إصلاح نيته في القيام بما أسند له، والتوفية لما ولي عليه، فإن إضاعة ما أسند له وولي عليه أعظم سبب في الاستعاضة به، والاستبدال منه إن سلم من جزاء التفريط والتضييع) (١٣).

ويتبين من خلال ذلك مدى ما كان يوليه ابن عاصم للعدل والإنصاف وحسن السيرة مع الناس، وأن على الوالي أن يضع ذلك نصب عينيه، وابن عاصم يفترض أن هذا الوالي الذي عزل بسبب تفريطه في عمله، كان حكمًا أقامه الله لنصرة المظلوم من الظالم، وللأخذ على يد المعتدي حتى يتبين الحق، فاذا عَطَّلَ هذه السيرة ولم يأخذ بها، وكان عونًا للظالم على المظلوم، والجاني على المجني عليه، وأخذ البريء بجريرة الآثم، تبيّن أن هذا عين المخالفة، ومضادة الشرع، والحق مما لا يستقر معه الأمر، ولا تستقيم عليه الدولة وعند ذاك تلحق العقوبة، وينزل العذاب والنكال، فإن كان التهاون جزئيّاً، كانت العقوبة على قدره، وإن كان كليّاً شملت، ويضرب ابن عاصم للأخير مثالاً بحاله وحال سلطانه، وفيه إشارة إلى إحدى الثورات التي أطاحت بالأيسر، فعم بلاؤها وعذابها أرباب الدولة، وحاشية السلطان (١٤).

وابن عاصم يلفت نظر الوالي أو العامل الذي وقع تحت طائلة العقوبة، من قبل السلطان، فاعتقل أو أصابه نكال، ثم أعاده السلطان إلى منزلته وعمله، أن عليه أن يسلك طريق الاستقامة، وحسن السيرة والإفادة مما وقع في الماضي، لأن التمادي في الباطل وسوء السيرة بعد ذلك، سبيل إلى سخط السلطان، ونقمته بصورة أكبر من الأولى.

وينبه ابن عاصم من تولى الوزارة لدى السلطان، إلى قواعد أخلاقية وسلوكية، لتكون وسيلة إلى نجاحه وسلامته، فعلى الوزير أن لا يتجهم حاشية السلطان الأقربين، ولا يتنكر لخاصته المقربين، لأن هذه الفئة من الناس هي أقدرهم على تدبير الدسائس، واختلاق المشكلات، وصرف قلب السلطان بين حين وآخر، ويؤكد ابن عاصم على سلوك المداراة، والدفع بالتي هي أحسن، والتزام الحق في الإيراد والإصدار، والسعي لمرضاة السلطان عن طريق الإحسان، والتجمل مع خاصته (١٥).

ويرسم ابن عاصم لنا صورة سياسية واجتماعية لطائفة من الناس، اجترأت على الفساد والظلم، وأعانها على ذلك أمران: الأول في ظل حماية كفلها لها أرباب الوجاهة والسلطان في الدولة، فهذه الطائفة لا تخشى عقاباً، ولا ترهب أحداً.

ويشير ابن عاصم إلى السبب وراء تلك الحماية التي كفلها أهل الوجاهه لتلك الطائفة من الأشرار: «قد قذف الله في قلوب الذين راغموا الله فيهم، أنه إن تعرض إلى هذا اللاجئ إلى بابه، والراكن إلى حرمته، فإن رتبته تخمل، وعزته تنقص، حتى وإن كان الحكم قيّوم الشريعة وحامل الديانة، فلا تجاب لقاضي الجماعة ممن دونه دعوة، ولا تخشى لصاحب الشرطة الكبرى ومن فوقه سطوة...»(١٦).

أما الأمر الثاني فإن طائفة من هؤلاء الأشرار المفسدين إن لم يركنوا في حمايتهم إلى الوجهاء، وذوي السلطة، فقد سهّل لهم التخلص من العقاب، وتبعة أعمالهم طائفة من أرباب الدولة الذين ادعوا التثبت والاحتياط، ودرء الحدود بالشبهات، وإضفاء طابع الإشكال والغموض على ثبوت تلك الممارسات والأعمال المنافية للشرع، وبالتالي إهمال الحق وتبطيل الحدود(١٧).

وما من شك أن هذه الصورة السياسية الاجتماعية التي رسمها ابن عاصم، إنما هي صدى واضح لما كانت عليه حال طبقة من طبقات المجتمع الغرناطي، وهي الطبقة المتنفذة ذات السطوة والمنزلة العليا في الدولة، ودورها في تردي الأحوال الاجتماعية، وشيوع الفساد والحيلولة دون القضاء على أسبابها ومسببيها، كما أن في الصورة الثانية عن أولئك الذين يدعون التثبت والحيطة ودرء الحدود بالشبهات من القضاة وأصحاب الشرطة، فيبطلوا الحدود والقصاص، برهان واضح على تفشي الفساد في سلك القضاة، والشرطة، وذوي الأحكام فيه، وهي صورة مؤلمة لما آلت إليه الأحوال السياسية والاجتماعية والدينية في مملكة غرناطة، وتؤكد أن الوضع العام سواء على الجبهة الخارجية مع الإسبان، وأعداء الدولة، أو الجبهة الداخلية، كان ينذر بالانحلال والانهيار، فتماسك أو ضعف الجبهة متلازماً أيضاً مع حال الجبهة الداخلية.

وعالج ابن عاصم في صورة تحليلية، ظاهرة سياسية، وهي ظاهرة العزل عن العمل، أو المنصب، وتأثيرها على الحالة النفسية للمعزول، ويرى ابن عاصم أن السبب في التبرم والضيق والحزن الذي يصيب المعزول، وما ينتج عن ذلك من الخمول وانحطاط المنزلة وضياع الجاه، «وكل هذه مضادة لما جُبلَت عليه النفوس المتطلبة للرئاسة، وهي آخر ما يخرج من رؤوس الصديقين، فلا يبلغ الوصف مقدار اللاحق بالعزل من الحزنيات التي تصعب على من امتحن به، وتثقل على من ابتلي بكربه، وذلك بيِّن لأن الولاية من العزل على طرفي نقيض، والانتقال من حالة إلى حالة تضادها على غير تدريج صعب جداً، ومن هنا يوجد للمعزول اضطراب، ربما أخرجه عن حد الاعتدال...»(١٨).

في الميدان الاجتماعي

فإذا انتقلنا إلى جانب آخر وهو: الميدان الاجتماعي، نجد المؤلف قد أسهم في دراسة بعض الظواهر الاجتماعية، ومنها ظاهرة الاغتراب، وقد تطرق إليها أثناء حديثه عن الابتلاء بالاغتراب عن الأوطان، ويذكر ابن عاصم أنه لولا أن الاغتراب أمر شاق وعسير على من ابتلي به، (لما عمرت الأوطان العديمة المرافق والثغور الشديدة المخاوف) غير أن الله عَزَّ البلدان بحب الأوطان، ثم يتحدث عن السبب وراء إحساس الإنسان بالألم والمعاناة الشديدة من وراء الاغتراب، فيقول: «وسبب ذلك – والله أعلم – كون الإنسان حيواناً مدنياً، لا يقدر على الإقامة وحده، ولا تقوم مصالحه على انفراده، والاغتراب نوع من الانفراد، لأنه يحصل بين ناس لا يعرفهم، ويفتقر إلى قوم لا أنس لديهم، ولا موجب لديهم للعطف عليه، وكذلك من حيث من غاب عنهم من أهل، فإنهم قد فقدوا أنسه وعدموا المصلحة المقتنصة لهم منه، فيشتد عليه أسفهم، ويعظم بفرقته كمدهم»(١٩).

وابن عاصم هنا يُعرِّف بجانب من ظاهرة الاغتراب

التي يعاني منها الإنسان، ويقدم لنا تفسيرًا علمياً صحيحًا للوضع النفسي الذي يحس به المغترب، ويوضح لنا السبب وراء ذلك، وهو هنا يقدم مصطلحًا فلسفيًا عن مكانة الإنسان في المجتمع بوصفه حيوان مدني، لا يمكن أن ينفصل عن محيطه ومناخه الاجتماعي الذي ولد وترعرع وعاش فيه، وهذه الظاهرة «الاغتراب» من الظواهر الاجتماعية التي تناولها المفكرون، والفلاسفة، وعلماء الاجتماع بالتحليل والدراسة العميقة، لما لها من تأثير كبير في حياة الفرد ونفسيته ومكانته الاجتماعية(٢٠).

ويقدم لنا ابن عاصم من نفسه مثالاً حياً لمن تغرب عن وطنه وعانى من وراء ذلك فيقول إبان الصراع بين سلطانه الأيسر وابن أخته أبي الحجاج يوسف بن أحمد، أنه اضطر مع السلطان إلى الخروج إلى مالقه (جنوب غرب غرناطة)(٢١)، مفارقًا لوطنه، وأهله، وولده، خالي الكف من المال، مجردًا من جاهه، ومنزلته التي كان عليها، وكيف أنه إبان ذلك كان يعاني الحزن والألم من جهتين: الأولى بما يلحق نفسه من المحن، والثانية مما قد يقع من البلاء بالأهل والذرية الذين تركهم اضطرارًا في غرناطة.

ويشير ابن عاصم إلى عميق حزنه عندما رأى غيره من الأصحاب، وقد اصطحب أهله معه، إلاّ هو فقد كان في دربه وحيدًا يتلفت بين الفينة والأخرى إلى مرابع أهله وولده، وهو يضطرم قلقًا، جزعًا على فراقهم (٢٢) .

ولابن عاصم إشارات ولمحات سريعة إلى طبيعة العلاقات الاجتماعية في زمانه، وكان لما أصابه من نكبات ومخاوف وآلام، من جراء الصراع على السلطة بين سلطانه الأيسر، وخصومه كابن المول، وأبي الحجاج، وغيرهم، كان لهذه التقلبات والاضطرابات وما زرعته في نفسه من روع، ووجل، وترقب، وقلق دائم، وحاجته أثناء ذلك إلى الأخ المخلص والصديق الوفي، فكان الوفاء والصدق قليل جداً في مثل هذه الأحوال المتردية. فيقول ابن عاصم: «ولقد وقفت من ذلك بالتجربة على ما لو صرحت بأعيان الوقائع، وسميت من بلوتُ منه الخيانة من الأقارب، وأشرتُ لمن علمت منه عدم الوفاء من جنس الصديق الملاطف، لقضى منه العجب سامعه، وشاهد منه الغريب قارئه، حتى لا يستبعد قول من قال: (إن الصديق الموثوق بمودته قد قلّ حتى صار اسمًا لغير موجود، ولفظًا لمعنى مفقود...)»(٢٣).

وعندما تحدث ابن عاصم عن المال، وموقف السلف من السعي في كسبه، أو الركون إلى الزهد، وبعد أن أورد أقوالهم في الحث على طلب الغنى وذم الفقر، ثم إيراده قول من أشاد بقيمة الزهد في الدنيا، والتقليل من زخرفها ذكر «أن الأولى المبالغة في الحض على الزهد، فإن طبع الناس لاسيما في هذه الأزمنة قد جاوز الحدَّ في التناغي في إيثار العاجلة وترك الإقبال على الآخرة» وهذه صورة من الصور الاجتماعية ذات الدلالة على ما أصاب جانبًا من جوانب المجتمع الأندلسي آنذاك من عزوف عن القيم، والمثل العليا التي كان ينادي بها علماء السلف وصلحاء الأمة، وأن المجتمع الأندلسي بالتالي بلغ حداً من الترف، والثراء والسعي وراء كل ما يعزز هذه الحالة الاجتماعية، وهذا الأمر هو الذي دفع ابن عاصم إلى الاشارة إلى ذلك(٢٤).

الميدان الاقتصادي

وفي الحياة الاقتصادية نجد لدى ابن عاصم إشارات جيدة، منها ما ذكره عن حال السكّة على عهده، إذ تحدث عن أنواع الابتلاء اللاحق بالمال والمتاع، ثم ذكر أن أعظم الابتلاء ما يكون من لدن الحوادث الدينية، أي ما له صلة بالدين والمعتقد، فيقول ممثلاً على ذلك: «كقضية هذا الربا الداخل على كل أحد في مكسوبه، من أجل الدراهم المغشوشة الجارية كانت فيما سلف من هذا الوقت منذ زمن يسير، ومن أجل هذا الذهب الأبيض المغشوش الجاري إلى الآن، فإن هذه نازلة كبيرة، وفادحة عظيمة، لم يسلم من شرها أحد، ولا أظنه بخامنها في هذا الوطن بَشَر، وبها تبين ما نقله أبو عمرو الداني عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: يأتي على الناس زمان يأكل الناس فيه الربا قال: قالوا: فالناس كلهم؟ قال: من لم يأكله ناله من غباره، فتأمل هذا الحديث مع الدافع في هذه الأزمنة في السكة فإنه مطابق له» (٢٥) .

وهذا نص اقتصادي مهم جداً يكشف عن الوضع النقدي، أو حال السكة في عصر المؤلف، وفيه دلالة على تردي السكة، وانعدام ضبطها وشيوع زيفها بين الناس.

ويورد ابن عاصم إشارة إلى وظيفة مالية يدعى صاحبها عند أهل غرناطة بـ «الحافز»، وكان هذا الموظف مسئولاً عن المغارم، أو الأموال المفروضة على التجار الواردين على غرناطة، ويذكر ابن عاصم أن من بين من تولاها رجل يدعى (مُسلّم)، وكان إبان ولايته مضرب المثل في القسوة في تحصيل المغارم، والاجتهاد في جمعها، والتفتيش الدقيق على واردات التجار وسلعهم، فلا يكاد يفلت أحد ممن يحاول التملص، أو إخفاء ما يستوجب المغارم، ويشير ابن عاصم إلى قصة أحد التجار الواردين على غرناطة، وخوفه على ما معه من سلع، وقبيل دخوله غرناطة التقى بأحد أعيانها فرجاه أن يحمل معه ما لديه من سلع ثم يلتقي به في مكان ما في غرناطة لاستلامها، فلبى الرجل طلبه، وتمكن التاجر من دخول المدينة، والتقى بصاحبه وأخذ منه السلع، ثم تبين له أن ذلك الرجل هو مُسلّم، وقد أبدى هذا كرماً ومروءة عندما سلّمه أمواله، وسلعه دون أذى (٢٦).

وإذا كانت ظاهرة المصادرة تعني عند المشارقة استصفاء المال من صاحبه من لدن السلطان أو الحاكم، فإنها أي المصادرة تسمى عند الأندلسيين – حسب قول ابن عاصم – النزع، وقد أشار إلى ذلك عند حديثه عن الابتلاء في النفس والمال، وذكره قصة القاضي أبي عمرو ابن يوسف، (ت ٣٢٠هـ/٩٣٢م)، الذي تعرض للاعتقال والقتل عندما خلع المقتدر وبايع المعتز، ممن ذكر أن قصته اشتملت على الاعتقال والخوف العظيم، وعلى استصفاء المال والمصادرة المسماة في العرف (بالنزع) (٢٧).

ويمدنا ابن عاصم بمعلومات عن بعض الكوارث الاقتصادية التي لحقت بالأندلسيين بمملكة غرناطة، ومنها هجوم الجراد على شرق مملكة غرناطة سنة ٨٥٢هـ/١٤٤٨م، وقد وصف المؤلف ما أصاب الناس من هلع وجزع لكثرة أسرابه وغزارة عدده، وكان أكثر البلاد تعرضًا للجراد وادي آش وبسطة وبيرة وما جاورها من المناطق، وقد وصف المؤلف حركة الجراد وانتشاره بين المناطق بقوله: «فكانت تلك الفجاج الفيح تموج بهم موجًا، يذر الأرض بعده جرداء، كأنها لم تنبت في عامها خضرا» ويصف ابن عاصم موقف الأهالي من هذه الكارثة، ويذكر أنهم انقسموا إلى قسمين: فئة نزعت إلى مقاومته ومحاربته، كأهالي بسطة وأشكر (شمال شرق غرناطة)، فخدُّوا له أخاديد في الأرض، واضطروه إلى الهوي فيها، وداسوه بالأرجل، وقاوموه بما في أيديهم من الوسائل، والجأوا الكثير منه إلى الأنهار والترع، ثم استخرجوا ما وقع في الماء بغرابيل الزرع فيطرحونها في تلك الأخاديد.

فاجتمع لديهم من الجراد أكوام هائلة بلغت أكثر من أربعة آلاف جمل، وقد بعث قاضي بسطة إلى الحضرة برسالة يطلع السلطان على ما وقع، وكان أهل أشكر قد فعلوا مثل أخوانهم في بسطة، فقد عمدوا إلى فتح أربع وعشرين ساقية تدافع إليها الجراد، فحاصروها وأخذوا في قتلها بغرابيل الزرع، حتى سيطروا على جمعها، وارتفع الأذى عنهم، وفئة أخرى كأهل وادي آش وأهل بيرة وكثير من أهل وادي المنصورة، وقفوا مستسلمين لهجمات الجراد، فكاد أن يستأصل زروعهم وثمرهم، ولم يبق لديهم إلاّ اليسير (٢٨).

وعندما يتحدث ابن عاصم عن افتتاح المسلمين لمدينة بطلس (شمال شرق غرناطة)، على يد القائد إبراهيم بن عبدالبر، يمدنا بوصف ممتع عن أهمية هذه المدينة، وما كانت تتمتع به من مميزات تجارية واقتصادية، وما كانت تضمه من ثروات طبيعية وزراعية، وكثافة ما بها من أشجار الصنوبر، وكثرة ما بها من القار والأصباغ اللازمة للصناعة، وضروب الحرف المختلفة، يقول – نقلاً عن شيخه القاضي أبي العباس أحمد الشريف – : «إنه بلد تجلب منه الميره لغيره، وتستجلب منه المرافق لسواه، ثم لا يفتقر هو لغيره، لا في زرع، ولا في زيت ولا عصير، ولا فاكهة

ولا جبن، ولا غير ذلك، مما تستمده المواضع بعضها من بعض، إلى طيب المدرة، وخصب البقعة، وحصانة البلدة، ومتانة السور، وأصالة الوضع، وإغداق الشرب، وحسن الترتيب، وإسجار الغلات، ووفور الفواكه، وتعدد المرافق وجموم الرفع، وتأتي الكدح فقد اشتمل فحصه الأفيح من شجر الصنوبر، وشبهه، المعاني منه يكون القار، والمستخرج منه غيره من الأصباغ، المنتفع بها على ما لا يخشى نفاده، ولا يجوز كساده، فما الظن بالخشب القابل للنجارة المعدّ لموضوعات هذه الصناعة، وقد دحا الله هذه المدينة في أحسن تقويم، وأمنع ترتيب، لوعورة مسالكها لما يطرقها من خيل العدو المغيرة دفعه، وحيلولة أغوارها عما يعم فجاجها المتعددة من ذلك ضربه، فتكفل ذلك لأهلها بالسلامة من مضرة العدو، والأمنة من معرة الجيوش» (٢٩) .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الصراع بين المسلمين والنصارى قد انعكس على العلاقات التجارية بين المسلمين والنصاري ، ولذا كان الطرفان في حاجة إلى عقد المعاهدات، والاتفاقات التي تنص على تأمين الحركة التجارية بينهما، والتعهد بسلامة التجار ومساكنهم بين بلاد المسلمين وبلاد النصارى، ورغم ذلك فإن هناك إشارات تدل على أن النصارى لم يحترموا معاهداتهم وتعهداتهم بتأمين السلامة للتجار المسلمين وسلعهم أثناء متاجرتهم في بلاد النصارى، فيفيدنا ابن عاصم ، أن حاكم أنتقيره(٣٠) أظهر للتجار المسلمين عزمه على تأمين سلامتهم، وما يحملون من بضائع، ووثّق ذلك العهد بالأيمان وكتب لهم عهداً باسم ملك قشتالة خوان الثاني زيادة في تطمينهم، وهنا دخل التجار المسلمون إلى بلاد النصارى ظانين صدقهم، غير أنهم ما إن توغلوا قليلاً حتى قبض عليهم حاكم أنتقيره الغادر، حيث أسر منهم ثلاثين تاجراً، واستولى على بضائعهم وسلعهم ونكث بعهده، وقد انتقم المسلمون لهذه الخطوة الغادرة (٣١) .

ويشير ابن عاصم أيضًا إلى القرصنة التي مارسها الإسبان، وكيف أن قوة بحرية منهم اعترضت أحد المراكب التجارية المترددة بين المغرب والأندلس، وقبضت على صاحبه، ومن معه من المسافرين، وساقوا المركب إلى مرسى قرطاجنة، وأوثقوا من لمسوا فيه الشجاعة والقوة، وتركوا من ظنوا ضعفه من الركاب، غير أن هؤلاء ما لبثوا أن ثاروا ثورة رجل واحد باتفاق سري فيما بينهم ، وهاجموا الحرس الإسبان، وقتلوهم وأسروا البعض، وافتكوا من كان في الوثاق من المسلمين، ثم أقلعوا إلى المرية (٣٢) .

الميدان الحضاري

يقدم لنا ابن عاصم معلومات مهمة عن بعض الآثار أو المنشآت المعمارية في مملكة غرناطة، فيذكر روائع البنيان وفخامة قصور بني نصر، ومنها القصر الذي بني في المنية التي أطلق عليها اسم (الدشار)، وهو قصر السبيكة المبني في جنة العريف، ويسهب ابن عاصم في الإشادة بروائع القصر، وما ضمه من الأبنية، وما اشتمل عليه من الحدائق، وفي هذا النص الحافل بالأوصاف الدقيقة لمكونات القصر، ومعالمه العمرانية إجلاء وتوضيح عن مدى ما كان يتمتع به الأندلسيون الغرناطيون من قدرات معمارية، ومعارف هندسية راقية، وفي النص إشارة إلى مناجم بعض الأحجار، ومنها الرخام الذي كان يستخرج من نواحي وادي المنصورة إلى الشرق من غرناطة (٣٣) .

ولا يهمنا في هذا الصدد الحديث عن هذه المعالم العمرانية، إنما المهم هو الإشارة إلى التطور والإبداع الهندسي في بعض جوانب تلك المنشآت المعمارية، ومنها: هندسة توصيل المياه، فهو حين يتحدث عن الصهريج أو البركة التي تتوسط مقر السبيكة (الدشار)، يذكر أن الماء العذب يجتلب من أحواز قرية بيّش على بريد من الحضرة (١٢ ميلاً تقريبًا)، في الساقية ذات الانعطافات المتعددة، ترتقي إلى أعلى الربوة، آتية من علو جبل يقابلها في أقواس ضخمة قد نحتت من صلد الحجارة، في صورة تدل على براعة بانيها، ومهارته الفائقة في إنشائها، فينضغط الماء في تلك الأقواس المحكمة ذاهبًا إلى

الصـهريج، وبناء هذه الساقيـة، ومراعاة تدفق المياه في تحدرها، وارتفاعها أثناء جريانها نحو القصر، تدل دلالة واضحـة على بلوغ درجـة رفـيـعـة من التطور الهندسي، والرقي الفني، ثم يشير المؤلف إلى أن باني هذا القصر (وهو السلطان الغني بالله) (٣٤)، فكر في إنشاء قصر يتميز باستقباله أكبر قدر من النور، واتّبع في سبيل ذلك طرقًا هندسية، استخدم فيها الزجاج الذي يسمح بدخول النور، وحرص على «تجميل تلك السقف المتقابلة الأشكال على تلك الأعمدة الرخامية حتى تبقى كل فسحة بين كل اثنين منها مخلاة لنور الشمس، وموقعًا لمنبسط شعاعها، فلا يلحق النفس انقباض من فقد أثر هذا النير الأعظم، ولا تجد من مسه ألمًا، ولا نسج المطر أثرًا، لانسحاب الظل، وحصول الكنّ بوجود مرفوعات هذه السقف المختلفة الوضع، من أخذ طوله شرقًا وعرضه وعكسه» (٣٥).

وعندما يتحدث ابن عاصم عن مهنة الطب يصفها بأنها من أشرف الصنائع وموضوع تصرفها الذي هو الإنسان أشرف الموضوعات، بيد أنه يحذر وينبه إلى وجوب الحيطة من أدعياء وجهلة الأطباء، ويذكر على وجه الخصوص بعض أطباء اليهود الذين ألحقوا أشد الأذى بعدد من المرضى، ومنهم أبو سـعـيـد بن لُب أحـد شـيـوخ ابن الخطيب، وأبو إسحق الشوذري أحد صدور عاقدي الشروط بغرناطة، والأول كان هلاكه في وصفة غذائية وصفها له أحد الأطباء اليهود، والآخر هلك أيضًا بمشورة طبيب يهودي نصحه بالفصد، فكان فيه هلاكه ويشير أيضًا إلى ما تعرض له الإمام المازري من علماء صقلية، (ت ٥٣٦ هـ) من أذى على يد طبيب يهودي، ثم نصح ابن عاصم المريض أن يقصد في علاجه من يرضاه علمًا ودينًا، ويعتمد بعد ذلك على الله (٣٦).

ابن عاصم شاهد عيان على الأحوال السياسية للدولة النصرية في عصره

وفيما يتصل بالأحوال السياسية في مملكة غرناطة، نعثر على معلومات قيمة، ونادرة لا تتوافر في أي مصدر آخر، تتعلق بالصراع والتنافس على الحكم بين السلطان محمد الأيسر وخصومه، وقد حكم الأيسر غرناطة خمس سنوات، وفي كل مرة يخلع، ثم يعود إلى الحكم، إذ يمدنا ابن عاصم بمادة تاريخية عن ثورة يوسف بن محمد (ابن المول) على السلطان الأيسر، وقد تمكن ابن المول بمساعدة ملك قشتالة خوان الثاني (١٤٠٧م - ١٤٥٤م) من انتزاع السلطة من السلطان الأيسر ٨٣٥ هـ/ ١٤٣١م .

وابن عـاصم يصف دور الإسـبـان النصـارى في التـفـريق، وتصـديع شـمل المسلمين، والعـمل على إضعاف قواهم، وتدبير المؤامرات ضدهم، سعيًا إلى سحقهم، والقضاء على آخر ما يملكونه من البلاد في جزيرة الأندلس، وكان لأهالي بلش (٣٧) دور بطولي في التصدي لثورة ابن المول. وتأييدهم المطلق للسلطان الأيسر. وترحيبهم به، وإنزاله منزلة عالية تليق بملكه، ولقي الأيسر أيضًا كرم الوفادة والترحيب الجمّ من لدن أهل مالقه - (جنوب غرب غرناطة)، ويشير ابن عاصم إلى المساعدة العسكرية التي قدمها خوان الثاني، إذ بعث جيشًا لمساعدة ابن المول للتصدي لحملة السلطان الأيسر، وكان القشتاليون قد نزلوا على بريد (١٢ ميلاً) من غرناطة، وقد روعوا الناس، وعاثوا فسادًا، فكان اللقاء بين الطرفين، جيش ابن المول وحلفائه من القشتاليين وجيش الأيسر، وقد أحرز الأخير النصر، وسقط كثير من القشتاليين قتلى، ثم قدم السلطان إلى غرناطة فاستقبل استقبالاً حافلاً، وكان ابن المول لا يزال ملازمًا للحمراء، فحاصره جيش الأيسر حتى فتحت على الأمان لمن بها من أعوان ابن المول، وكان يقود جيش السلطان الأيسر حفيده أبو الحجاج يوسف بن أحمد بن نصر، وسعوا إلى البحث عن ابن المول الذي اختبأ عن الأعين، وبعد بحث وتنقيب شديدين عثروا عليه في خزانة مبنية في عرض الحائط، وقد أسبل عليها حصير، للإيهام بأن ليس هناك شيء فتم القبض عليه وقُتل (٣٨).

ويذكر ابن عاصم من ضروب المواقف العصيبة التي مرت بالسلطان الأيسر، ما حدث حوالي سنة

٨٣٥هـ/١٤٣١م، إذ قام رجل يدعى يوسف المدجن، وكان حسب رأي المؤلف من أهل البداوة المشتغلين برعاية البهم والفلاحة، ويذكر أن هذا الرجل كان يعمد إلى الخطابة، والكلام على طريقة أهل التصوف، فالتفّ حوله كثير من الناس الذين فتنوا بكلامه، وما بدا منه من زهد ونسك، «يهتف في أثناء تصرفاته بأفذاذ كلمات لا طائل تحتها، يحمِّلها أولئك المفتونون بأمثاله من أولي المنازع الغريبة، ما لا تحتمله لطائف إشارات الصوفية، أرباب السلوك الخاص والعلوم اللدنية». ثم يشير إلى تطور أمر هذا الرجل، إذ عمد مع أتباعه إلى بناء السفن بمختلف أنواعها الصغير والكبير بغرض الجهاد، وقتال الأعداء، وكان السلطان الأيسر معجبًا به حسن النية فيه، فأمده بالمساعدة والأموال، وقدم له الآلات اللازمة لصناعة السفن، ومكنه من الإفادة من دار صناعة السفن، وكان أهل الرأي والمشورة ينصحون السلطان بالتثبت من حال الرجل، وغايته، والسلطان يحسن الظن به حتى استفحل خطر المدجن، وأصبح في جيش من الأتباع، وفي أحد الأيام طرق السلطان الخبر بأن المدجن قد هاجم وأتباعه بعض أرباض العاصمة، داعيًا الناس إلى بيعته، فانتدب له من الغوغاء والأوباش عدد الحصى، هاتفين بالخلعان معلنين بالإقامة لدعوته، متهالكين بالاستماته في طاعته، باذلين النفوس في خدمته، ونشبت الحرب بين المدجن وأتباعه، وجند السلطان، وكادت الفتنة أن تعمّ ثم مالبثت أن تقلصت، ولحقت الهزيمة بالمدجن، الذي فَرَّ غير أنه لم يسلم، حيث لحق به بعض الجند فقتلوه.

والطريف في الأمر أن ابن عاصم يشير إلى أن المدجن بعد مقتله، وصلبه، وتحقق ذلك بفصل رأسه عن جسده، ومشاهدة الخلق له في غرناطة على هذه الحالة، يذكر أنه ما أن ووري الرأس التراب، حتى قامت فئة من أتباع الرجل تقول فيه بالرجعة، وأن الذي صلب غيره، وأن الرأس ليس له، وأن الذي قتل كان يشبهه، وصاروا يدَّعون رؤيته، ويذكرون أن بعضهم شاهده في الكهف الفلاني، أو الغار الكائن بجبل كذا، وأنه أخبرهم أنه خارج عما قريب فيملأ الأرض عدلاً كما ملئت جورًا، إلى آخر ما ادعوه من أقوال تخرج عن العقل (٣٩) .

وما من شك أن هذه الأفكار والأقوال حول الرجل، تدل دلالة واضحة على مستوى التفكير عند كثير من الناس آنذاك، وتدل على أن الأحوال في غرناطة كانت من الضعف، والتردي، والانحلال، ما يدعو إلى التفكير في خروج من يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جورًا، كما أن فيها إشارة إلى ما أصاب الجبهة الداخلية من انقسام، وتفكك فكري، وسلوكي. وقد أشار إلى ذلك ابن عاصم حيث يقول: «فقد كان حالها (أي الحادثة) وخطرها كبيرًا، وربما كانت أول أمر، سهل هذا الخلاف، وأوقع الافتراق بين القلوب» .

وفي سنة ٨٤٩ هـ/١٤٤٥م نشب الخلاف بين السلطان الأيسر، وابن أخته أبو الحجاج يوسف بن أحمد بن نصر، وكان هذا من كبار أمراء بني نصر، وقادتهم الذين أسهموا في إرساء دعائم الدولة، ومساندة السلطان الأيسر، وأدى أصحاب الفتنة والنميمة دورًا في توسيع الخلاف (فسعوا جهدهم في نقل النمائم، وانتحال الأباطيل) وحاولت أخت السلطان ووالدة أبي الحجاج أن تخفف من حدة التوتر بينهما، غير أنها لم تنجح، فنصحت ابنها بالاستقرار في المرية، (جنوب شرق غرناطة)، متوليًا لقصبتها. ويبدو أن هناك من كان له مصلحة في تأجيج حدة الصراع بين السلطان الأيسر وأبي الحجاج، ونجم عن اشتداد الأزمة أن عمد أبو الحجاج إلى ضرب السكة، والانفراد بالرسوم، والجبايات، ولم يكن من بد من الاصطدام بينهما، فعمد السلطان إلى التوجه في حملة عسكرية إلى مدينة المرية، فحاصرها نحو شهر، غير أن التخاذل والخلاف دَبَّ بين جنده، وتوالت عليهم أحداث عسيرة، منها وقوع كثير من الإمدادات المرسلة للجيش في أيدي أنصار أبي الحجاج، مما ألحق الوهن في نفوس جند السلطان، فعزم على الرجوع إلى غرناطة، غير أنه سمع باندلاع الثورة عليه في غرناطة، وجرى مجراهم أهالي وادي آش، ولم يستطع السلطان الأيسر دخول غرناطة، فتوجه منها إلى مالقة، ورغم أن جيش السلطان أحرز

نصراً على جيش أبي الحجاج خارج غرناطة، إلا أن الفتنة اتسع محيطها، فقد أعلن عدد من المدن والبلدات عصيانهم على السلطان، ومنها ذكوان ورندة وبلش[٤٠] ثم أهل مالقة أنفسهم، الذين حَلَّ بينهم السلطان مما اضطره إلى الخروج إلى ثغرة الرّه[٤١]، فاستقبله أهلها استقبالاً كريماً، وأبدوا له الصدق والوفاء، ثم انتقل إلى قصر بنيرة، ورأى السلطان الأيسر بعد طول تفكير أن يعتزل، حقناً للدماء، وإطفاء للفتنة، على أن يسمح له أبو الحجاج بالنزول في الدار الكبيرة في الحمراء، فوافق أبو الحجاج ومنحه إقطاعًا في شلو بانيه، ومترايل شرق مالقه، واستقرت الأمور لأبي الحجاج سنة ٨٤٩ هـ/١٤٤٥م.

غير أن الأمر لم يستقر سوى بضعة شهور، حتى ظهر مغامر آخر يطلب الزعامة وهو أبو الوليد إسماعيل الذي كان لاجئاً في قشتالة، ولم يعدم من يناصره من أهالي غرناطة، وسواها واضطربت على أثر ذلك الأحوال في غرناطة، فعزل أبو الحجاج الوزير ابن علاق، وعَيَّن مكانه أبا القاسم بن يوسف بن السراج، فأحكم هذا الأمور «وسدد الثغور، وبث العطاء في الجند، وأجمل مواعد الناس وتوقفت تلك الحال، ونزع عن الفتنة الكثير ممن اشرأب إليها، وعاد الرئيس (أبو الوليد إسماعيل) على أدراجه إلى أعماق قشتالة آيسًا مما كان قد أشرف عليه من نجح القصد»، ثم خاف السلطان أبو الحجاج من ابن السراج، والقائد يوسف بن فرج بن كماشة، فقبض عليهما، وحاول السلطان أبو الحجاج أن يقضي على القائد إبراهيم بن عبد البر، وكان أحد قادة السلطان الأيسر بوادي آش، غير أن جيش أبي الحجاج لم يتمكن من القضاء عليه، بسبب استماتة الأهالي في الدفاع عن ابن عبد البر، فعاد الجيش خائبًا، وحاول أبو الحجاج مرة ثانية القضاء عليه فبعث إليه جيشًا بقيادة ابن علاق غير أنه لم يفلح، وأدرك ابن عبد البر أن لا خلاص من هذه الفتن إلا باستدعاء الرئيس أبي الوليد إسماعيل سالف الذكر فخرج من قشتالة، قاصداً مملكة غرناطة، في ذي القعدة سنة ٨٤٩ هـ/١٤٤٥م، ولما نزل بوادي آش، وبلغ الخبر أبا الحجاج خرج هذا من غرناطة، ومعه أبو القاسم بن شراج، ويوسف بن فرج معتقلين، حيث نزل في المريه، ولجأ السلطان الأيسر إلى شلو بانيه، وفي هذا الوقت مات أحد زعماء الفتنة، ومؤجج نارها، ويدعى الأحسن الشريف فهدأت الأحوال شيئًا ما، ويصف المؤلف استبداد الوزير ابن علاق، وبطشه، وسعيه إلى القضاء على منافسيه حول السلطان أبي الحجاج، (معتقداً أنه إذا خلا له وجه مخدومه، فإن رتبته لديه لا تخمل، ووجاهته لا تنتقص) ثم يشير المؤلف إلى مقتل أبي الحجاج علي يد أحد أتباعه في أواخر جمادى الأولى سنة ٨٥١ هـ/١٤٤٧م وعلى أثر ذلك عاد السلطان الأيسر إلى ملكه [٤٢].

وفي عام ٨٥٤ هـ/١٤٥٠م خرج الرئيس إسماعيل – وكان قد عاد إلى قشتالة لاجئًا بعد أن عاد السلطان الأيسر إلى ملكه، عقب مقتل السلطان أبي الحجاج سنة ٨٥١ هـ/١٤٤٧م – وكان أول نزوله في حصن قمارش، وفي شهر صفر ٨٥٤ هـ «نزل بقصبة مالقه، وقد كان دخوله إلى مالقه سببًا في اضطراب النفوس، وتبلبل الآراء حول هذه الثورة» والمؤلف يشير إلى دور ملك قشتالة في ضرب الجبهة الإسلامية، وتفتيت قوى المسلمين، وكيف أن أكثر الناس كان متنبهًا لمكائد النصارى، ومساعيهم العدائية، ذاكراً أن الفقهاء والعلماء كان لهم دور في تبصير الناس، وتنويرهم بعواقب هذه الثورة، وما ينجم عن نجاحها من أخطار، وما تؤدي إليه الفتنة من انقسام، وتنازع بين المسلمين، وأن في ذلك خدمة جُلى للأعداء من النصارى المتربصين بها، ومن ثم يشير إلى أن السلطان الأيسر اتخذ الأهبة للقضاء على الفتنة، فسار على رأس جيشه غربًا في ربيع الثاني، فافتتح مدينة بلش (جنوب غرب غرناطة)، واستنزل من كان بها من أنصار الرئيس إسماعيل على الأمان في أنفسهم، ثم اتجه السلطان إلى مالقة، حيث نزل أولاً في جنة ابن سالم إلى الشرق من رابطة السعداء، ثم حاصر السلطان مدينة مالقه حتى تم له افتتاحها في جمادى الأولى،

وذكر ابن عاصم قيمة هذا النصر، وعظم هذا الفتح الذي أبهر العقول، وأبهج النفوس، وقضى على أطماع النصارى في الانقضاض على هذا الجزء المتبقي بأيدي المسلمين، ويشير إلى أن النصارى قد جاشت جموعهم، واشرأبوا للغدر بعد أن مَنُّوا الرئيس إسماعيل بالملك، وأظهروا له النصرة، ثم يذكر استسلام أتباع إسماعيل الذين كانوا في القصبة، بعد أن أمَّنهم السلطان في أنفسهم، وأموالهم، وبعد أن تخلوا عن القصبات التي احتلوها في مالقة وغيرها، وبعد ذلك قدم أهالي مالقة وما جاورها يهنئون السلطان بنجاحه في إخماد الثورة، وفي الثامن عشرمن جمادى الأولى سنة ٨٥٤ هـ/١٤٥٠م تم القضاء على الثورة تمامًا بمقتل إسماعيل (٤٣).

أدرك ملوك غرناطة خطر النصارى، وتعاظم قواهم، وأن ليس لهم طاقة بحربهم باستمرار، ولهذا فقد كانت المعاهدات تبرم بين الطرفين، وقد أشار إلى ذلك ابن عاصم حيث قال: «فمن ذلك أن مسالمة هؤلاء النصارى المجاورين، كانت قد انعقدت على إتاوة اقتضاها أزم ذلك الزمان، وشدة لاحقة النفاق، وقد كان الخروج عنها بعيد التصور، صعب التناول، غير ممكن الحصول، لاغتباط الخاصة بما كان قد تهيأ لها من السلم، وعدم ثقتها بما لحق الطاغية من الوهن» (٤٤).

ويذكر ابن عاصم أن من نعم الله ومظاهر لطفه، أن المسلمين لم ينجحوا في زمن الإنفاق على استرجاع بعض الحصون والقلاع، فلما وقعت الفتنة والافتراق، (كيّف الله لهم القدرة في زمن الافتراق)، فعلى عهد السلطان أبي الحجاج يوسف، نجح المسلمون في الاستيلاء على عدد من الحصون، ومنها حصن البريج وحصن النجش(٤٥)، وكان لهذين الحصنين أهمية بالغة في تأمين نواحي وادي المنصورية، (من أعمال غرناطة)(٤٦)، فاطمأن أهله، وعاد لهم الأمن بعودة الحصنين إلى المسلمين.

ثم نجح المسلمون بقيادة ابن الوزير أبي إسحاق إبراهيم بن عبد البر، ومساعدة القائد يوسف بن كماشه، والقائد الأحسن الشريف، ويصفه بفارس المسلمين نجح هؤلاء في فتح مدينة بطللس بلس(٤٧)، وكانت هذه المدينة غنية، وافرة الخيرات، كثيرة الثروات، سواء في محاصيلها الزراعية، أو ما يستخرج منها من الأخشاب والقار والأصباغ.

وعلى عهد السلطان أبي الحجاج، فتحت بعض البلديات كبني سلمة، وكرتش (إلى الجنوب من غرناطة). ولما كان السلطان أبو الحجاج قد أبرم معاهدة مع بعض الأمراء النصارى الساكنين لبعض الحصون، فقد نهض القائد الوزير أبو إسحق إبراهيم بن عبد البر لمهاجمة هؤلاء الأمراء، وانتزاع حصونهم نكاية في السلطان أبي الحجاج، فافتتح غليرة، وقسطلة (إلى الشرق من غرناطة)، وذلك باسم الرئيس أبو الوليد، وكان مقيمًا بمالقة، ونجح المسلمون على عهد السلطان أبي الحجاج في افتتاح حصونًا أخرى، كأشكر الواقع في الشمال الشرقي من بسطة، وكان للعداء بين معسكر السلطان أبي الحجاج، ومعسكر السلطان الأيسر، تأثيره في توجيه دفة الغزوات والفتوحات، فكان قادة الأخير يهاجمون الحصون النصرانية المعاهدة للسلطان أبي الحجاج، نكاية في دولته، وبالإضافة إلى ما تقدم ذكره من افتتاح غليره، وقسطلة، وهي تحت حكم الأمير النصراني رودريجو مانريك، الذي كان معاهدًا للسلطان أبي الحجاج، افتتح أيضًا القائد إبراهيم بن عبد البر، وأبو القاسم بن السراج، ومفرج بن فتوح حصن السكة، (شمال غرب غرناطة)، وكان تحت أحد القادة النصارى المعاهدين للسلطان أبي الحجاج (٤٨).

بادر السلطان الأيسر عقب عودته إلى الحكم، على إثر مقتل السلطان أبي الحجاج ٨٥١ هـ/١٤٤٧م إلى غزو النصارى في حملات قادها ابن عم السلطان، ويدعى الأمير المنصور محمد. ويشير ابن عاصم إلى أن المسلمين توغلوا في أرض الإسبان، وأنهم نجحوا في غزوتهم، وعادوا (بالسبي الذي بعد العهد بمثله)، وأن المسلمين غزوا مدينة جيان (جنوب شرق قرطبة) وهي المدينة التي وصفت بأنها (قرارة الكفر، وقاعدة الشرك، ومأوى الحيات من عبدة الجبت)، ثم اتجهوا لغزو بيانه، (إلى الجنوب من

قرطبة)، وهي كما وصفها (بجبوحة التثليث)، ثم غزوا بعدها حصن أنتقيره، وكيف أن أهلها من النصارى بهتوا من هذه الغزوة الجريئة للمسلمين، فتطايروا خوفًا، وفزعًا، ولجأوا إلى السراديب، والأنفاق، ثم يشير ابن عاصم إلى غزوتهم نحو المرقجاده، وتقع إلى الجهة الشمالية الشرقية من غرناطة، وكانت تحت حكم Condestable، ويسميه ابن عاصم القند اشطبل، ويذكر أن وجهة هذه الغزوة إلى «البسيط الوافر القطين، المستبحر العمارة، المستكمل السارحة، المتعدد السائمة، المتطامن السرح، المتوسع المراعي، الممتد الكروم، المنتشر الزروع، المتمكن في الأرض المعروفة بالمرقجاده» (٤٩). غير أن هناك منطقة تدعى البسيط، تخضع لحكم النصارى تقع شمال شرق مملكة غرناطة، فهل هي الأرض التي وصفها ابن عاصم، ومهما يكن فقد نال المسلمون غنائم كثيرة من وراء هذه الغزوة، فعادوا بقطعان كبيرة من الماشية، كما غنموا عددًا من الذخائر، والثروات، ومنها صليب كبير، وصفه «بأنه الثقيل الزنه، اللجيني الصنعة، المشرب بحكم صنعته بِمُتَلَوِّنِ الزجاج البهي الحلية» .

ثم يشير إلى غزو المسلمين لمناطق تقع إلى الغرب من غرناطة، فقصدوا مدينة ابن السليم، وإن لم يفتتحوها فغزوا أطرافها، وما حولها، واستاقوا من الغنائم أكثر من عشرين ألف رأس من البقر، ونحوها من الغنم في خطوة جريئة، وصفها ابن عاصم بندرة الحدوث إلاَّ فيما مضى من الأعصار (٥٠). وهي إشارة تدل من ناحية أخرى على أن المسلمين منذ زمن طويل في موقع الدفاع، والنضال عما تحت أيديهم، وأن الغزوات خارج هذا الإطار صارت من الأمور المستعصية، إن لم تكن من المستحيلة، وهي تعني أن النصارى، خاصة منذ مطلع القرن التاسع الهجري، كانوا في موقع الهجوم المستمر، والكفة الراجحة باستمرار، وأن المسلمين كانوا في تراجع، وقواهم في تقليص، اللهم إلا من بعض الغزوات الخاطفة هنا وهناك، ومنها ما أشار إليه ابن عاصم .

وكانت بعض الحملات العسكرية يستهدف منها تأمين الحدود والمناطق الإسلامية والقضاء على كل ما يتهدد مناطق المسلمين، فقد هاجم القائد أبو العباس أحمد ابن عبدالرحمن حصن قوج وافتتحه، وكان هذا الحصن يتهدد مالقه، وما حولها. فدمّره، ودمَّر أيضًا حصن شبر لخطورته على ما حوله من المناطق الإسلامية، وتتابع الفتح، فافتتح المسلمون حصن الطورون. وغار أبي زيد، وكانت من الحصون. التي بسط النصارى عليها سيطرتهم إبّان فتنة ابن المول، وكان لأهل رندة دور كبير في افتتاح بعض الحصون، ومنها حصن يمنت، وابرونه، وحصن وجير، وكل هذه الحصون بالقرب من مالقة، وكان استيلاء النصارى عليها يمثل تهديدًا خطيرًا لمالقه، فعمد المسلمون إلى تدمير تلك الحصون، لكي لا تكون شوكة في جنب المسلمين(٥١).

وفي خضم الصراع بين المسلمين والنصارى، لجأ حاكم مدينة أنتقيره، (إلى الغرب من غرناطة) إلى المكر، وخداع المسلمين، إذ قطع على نفسه، ونيابة عن ملك قشتالة، أنه لن يتعرض لتجار المسلمين الذين يتاجرون في بلاد النصارى، وأن لهم الأمان على أنفسهم، وأموالهم، وقد كتب بذلك وثيقة تحت اسم ملك قشتالة زيادة في تطمين التجار المسلمين، مما شجَّع هؤلاء على دخول بلاد النصارى، وهم يحملون سلعهم وتجارتهم، غير أنهم ما كانوا يعبرون إلى أرض النصارى، حتى سارع حاكم أنتقيرة إلى القبض على ثلاثين منهم بما معهم من الأحمال، والسلع المختلفة، ولم يكتف بذلك، بل أسرع قبل تبين الخبر إلى غزو بلاد المسلمين فهاجم مدينة تاجرة، ونهب مواشيها، وأسر عددًا من أهلها، مما دفع المسلمين إلى الرد بالمثل، فهاجموا – بقيادة القائد أبي القاسم بن السراج، وأبي السرور مفرج – بلدة اليسانة، واقلار، (شمال غرب غرناطة). وغنموا وأسروا أقل من الذي ناله حاكم أنتقيرة، وكان عليهم أن يأسروا ما يماثلها من المسلمين، وكان الأمر ضروريًا وملحًا، لفداء أسرى المسلمين الذين أسرهم حاكم أنتقيرة، ثم عرج المسلمون إلى أنتقيرة نفسها، فسددوا لها ضربة قاسمة، وساقوا

منها ما يقارب ثمانية آلاف رأس من الماشية إلى جانب عدد كبير من الأسرى، تكفي لافتكاك أسرى المسلمين، وأخذ المسلمون في تكرار غزوهم، وهجماتهم لمدينة أنتقيرة مما اضطر حاكمها إلى طلب النجدة ممن حوله من أمراء النصارى، فقدمت إليه نجدات بقيادة قائد آشونه، وقائد قنيط، وقائد طيبة، (غرب مملكة غرناطة)، وقد حاول جمع النصارى هذا تعقب إحدى سرايا المسلمين التي هاجمت أنتقيرة، فاقتفوا أثرها طامعين في إهلاكها، وكان المسلمين كمنوا لهم في موضع يدعى حجر العشاق، فلما مَرَّ النصارى بالموضع خرج إليهم المسلمون، فحصدوهم بالسيوف والرماح، وكانوا أكثر من ٦٠٠ مقاتل معظمهم من الفرسان، واقتيد في الأسر من نجي منهم، ومنح الله المسلمين أسلابهم، وأسلحتهم، وما في أيديهم، وحاول النصارى الأخذ بثأرهم، غير أن هذه الطائفة لم تكن أحسن حظاً ممن سبقها، فقد قُتِلَ وأُسِرَ منها ما يقارب مئة وستين فارسًا(٥٢).

وفي إحدى المواقع الكبيرة عمد Juan Saavedra، ويسميه ابن عاصم خوان شي بدره، وهو قائد مدينة قسطيلية Castellar، (غرب مالقة) إلى حشد جيش كبير من المقاتلين من بلدته، والبلاد المجاورة كشريش، وابن السليم، (إلى الشمال من جبل طارق) وكان يستهدف من وراء حملته العسكرية مهاجمة أراضي مربلة، (إلى الجنوب الغربي من مالقة). وفي الوقت نفسه كان المسلمون بقيادة إبراهيم بن عبد البر، وأبي القاسم بن السراج قد خرجوا لغزو المناطق الغربية من أراضي النصارى، ويذكر ابن عاصم أن الغزوة كانت في طلب البقر، وأن العيون والجواسيس المسلمين الذين يراقبون الحدود، والثغور، ونشاط النصارى، قد ذكروا أن قطعان البقر تسرح إلى قريب من بلاد المسلمين، فينتجع بها أصحابها مواقع المطر، فطمع المسلمون في اغتنام الفرصة من غير حرب، أو دماء، غير أن المسلمين ما لبثوا أن التقوا بجيش للنصارى، وذلك في موضع يدعى الخزائن، بالقرب من مربلة، وكان النصارى أكثر من ست مئة مقاتل، وانجلت الموقعة عن هزيمة منكرة للنصارى، فقتل كثير منهم، ووقع في الأسر ما يزيد على مئة وأربعين أسيراً، وكانوا من أبناء النصارى، اختارهم، وانتقاهم، خوان سافدرا، الذي أُسر أيضًا، وكانت هذه الموقعة في الحادي عشر من المحرم ٨٥٢ هـ / ١٤٤٨م (٥٣).

ويشيد ابن عاصم بهذه الانتصارات العسكرية، خاصة أنها جاءت في ظروف عصيبة، كان النزاع فيها محتدمًا بين المتنافسين على العرش، وهو هنا يشير أيضًا إلى أن المسلمين إبان ذلك قطعوا الأتاوة التي كانوا يدفعونها لقشتالة، وهو أمر مستغرب فيقول: «فمن أين يسمع بأن رفع الضريبة، وفتح الحصون، واسترجاع المغضوب، وإدالة النصرة، لا يمنحه إلاَّ افتراق الألفة، وارتكاب الثورة، ومراغمة بعض القائمين بالأمر لبعضهم؟ هل هذا إلا أعجب ما يتحدث ويتفكر فيه؟» (٥٤).

وابن عاصم يذكر أن تسلط الإسبان النصارى على المسلمين، واستيلائهم على بلادهم شيئًا فشيئًا، إنما هو عائد إلى ما آلت إليه أحوال المسلمين من تنازع، وتناحر، مما أضعف قواهم، وأتاح لأعدائهم النيل منهم، فيقول: «ومن استقرأ التواريخ المنصوصة، وأخبار الملوك المقصوصة، علم أن النصارى - دمرهم الله - لم يدركوا في المسلمين ثأرًا، ولم يرحضوا عن أنفسهم عارًا، ولم يحرقوا من الجزيرة منازل وديارًا، ولم يستولوا عليها بلاداً جامعة وأمصارًا، إلاَّ بعد تمكينهم لأسباب الخلاف، واجتهادهم في وقوع الافتراق بين المسلمين والاختلاف، وتضريبهم بالمكر والخديعة بين ملوك الجزيرة، وتحريشهم بالكيد والخلابة بين حماتها في الفتن المبيرة» (٥٥).

والمؤلف ينبه إلى الحذر من الوقوع في مكايد النصارى، وما يتظاهر به ملوكهم من السعي إلى إصلاح الأمر بين سلاطين حكام المسلمين، إبان نزاعاتهم على السلطة، وهم يخفون غاياتهم، وأهدافهم في تمزيق شمل المسلمين، ومناصرة بعضهم على بعض حتى يدركهم الضعف، والوهن، ويسهل تدميرهم، وتحطيم سلطانهم. ويشير ابن عاصم إلى موقف الشرع من الاختلاف،

والتنافر، وترهيبه من ذلك، وترغيبه في الاتحاد والاعتصام بحبل الله، كما يشير إلى ما يلزم المسلم الذي بايع السلطان من واجب تجاه سلطانه، فلا يجوز له الخروج عليه، والتنكر لبيعته(٥٦).

لمحات تاريخية نادرة عن بعض الشخصيات الأندلسية

في الكتاب معلومات قيمة، ونادرة جداً عن حياة الفروسية، ومواقف البطولة بين فرسان المسلمين، والنصارى، فهو حينما تحدث عن أحد الفرسان الشجعان الذين كانوا في خدمة بني زيري في غرناطة، (عصر ملوك الطوائف) ويدعى هذا الفارس مقاتل بن عطية، ويعرف بالرؤية(٥٧) «وكان كثير الغارة على أملاك بني عبَّاد في أشبيلية، وقرطبة، فكان يغزو قرطبة ويغنم، وفي إحدى غزواته لها شارف باب القنطرة، وساق كثيراً من الغنائم، فارتجت المدينة، وكَرَّ راجعًا نحو غرناطة، غير أن ثُلة من فرسان بني عبَّاد لحقوا به، وكان في مقدمتهم فارس باسل يدعى: معد بن أبي قرة، الذي نجح في التصدي للغزاة، وأجبر مقاتل بن عطية على الاعتذار، والتخلي عن الغنائم، بعد أن داخل الروع قلبه، بعد تلك الضربات الموجعة التي أصابت رجاله وفرسانه» (٥٨).

ثم يورد ابن عاصم قصة أخرى وقعت لمعد، وهي أن فارسًا نصرانيًا اشتهر عند قومه بالبسالة، والفروسية، ولم يترك في قشتالة وجليقية فارسًا إلاّ غلبه، ولا بطلاً إلاّ كسره في المبارزة، ولما لم يجد في قومه من يصمد له، خرج نحو بلاد المسلمين، ونزل في بلاط المعتضد(٥٩)، وقد سمع بفروسية معد بن أبي قرة، فطلب نزاله، ومبارزته، وفي الغد خرج الاثنان إلى المبارزة، وكان معد قد أقسم أن لا يبارزه بسلاح بل بسوط، وخرج الفارس النصراني في كامل سلاحه وعدته، ونجح معد في تطويقه بالسوط، ودفعه عن فرسه وألقاه أرضًا، وتمت الغلبة عليه ثم قال له معد: لولا أني وأنت غريبان عند هذا الملك ماعِشْتَ بعد، فقام النصراني مغلوبًا (يُصلِّبُ على وجهه)، وهي عبارة المؤلف، وفيها إشارة إلى هذه الظاهرة التي يلجأ إليها النصارى في حالة الخوف، والفزع، ولما عاد النصراني إلى معسكره، بعث بهدية إلى معد غير أنه لم يقبلها، وقال: هو ضيفنا وهو أحق، فسرَّ المعتضد وزاد في إكرام معد، وينقل ابن عاصم عن ابن الصيرفي أن معدًا كان يكنى بذي الوزارتين أبي ندر، ويلقب فضل الدولة، وكان له جوشن مساميره من ذهب، وأنه أدرك غزوة الزلاقة، (٤٧٩ هـ/١٠٨٦م) مع المعتمد، وهو شيخ كبير، فاستعار المعتمد درقته وجوشنه، فألبسهما وزيره ابن خلدون فاستشهد فيها(٦٠).

وهذه المعلومات المتعلقة بفروسية معد، وشجاعته في التصدي لمقاتل بن عطية فارس بني زيري، ومبارزاته مع الفارس القشتالي معلومات قيمة، ونادرة لا نجدها في مصدر آخر، وابن عاصم ينقلها عن ابن الصيرفي (ت٥٧٠هـ)، وهو مؤرخ عاش في بلاط الدولة المرابطية، وألف بعض الكتب، ومنها كتاب «الأنوار الجلية في أخبار الدولة المرابطية» وكتاب «تقصي الأنباء وساسة الرؤساء»، وقد فقدت هذه الكتب، ولم يبق منها سوى بعض النصوص في بعض الكتب، ككتب ابن الخطيب ومن النصوص التي حفظت لنا، ما أورده ابن عاصم في كتابه جنة الرضا، ولهذا فالمعلومات التي ذكرناها في غاية الأهمية، والقيمة التاريخية التي تصور لنا جانبًا مهمًا من حياة الحرب والجهاد في تاريخ الأندلس، ومما يضيف أهمية إلى هذه المعلومات، أن هذا الفارس وهو معد بن أبي قرة لم تذكره كتب الطبقات والتراجم، - على حد علم الباحث - بأي شيء ولم يرد ذكره في كتب التاريخ، ماعدا ما ذكره ابن عاصم نقلاً عن ابن الصيرفي، وفيه ما يؤكد قيمة هذه المعلومات التاريخية عن هذه الشخصية اللامعة في تاريخ الأندلس، المغمورة عند مؤلفي كتب الطبقات والتراجم .

ويورد ابن عاصم أيضًا نقلاً عن ابن الصيرفي، قصة مشابهة لما أوردناه عن معد بن أبي قرة مع الفارس

القشتالي، فيذكر ابن الصيرفي أن الفقيه أبا مروان عبدالملك بن بونه أخبره، بأنه ورد على أذفونش بن فردلند (ألفونسو السادس بن فرناندو) ملك قشتالة، قومس من أوربا، وكان بصحبته طائفة من رجاله وفرسانه، وتبدو عليه مظاهر الأبهة، وعلو القدر، وذكر أنه نقب في البلاد، وسأله عن الفرسان، وأهل البسالة من أرباب السيف، والرمح، فلم يدع أحدًا منهم إلاَّ غلبه، فكانوا بين يديه بين قتيل أو طليق، وقد أنزله الفونسو في بلاطه منزلاً عاليًا، واحتفى بقدومه، ويبدو أنه أزعج الملك بغروره، وإعجابه بنفسه، فذكر له ألفونسو شجاعة أحد المسلمين وبسالته، ويدعى جرير بن عكاشة قائد قلعة رباح (شمال شرق قرطبة) وكان بينه وبين ألفونسو معاهدة سلم، فتشوف الفارس النصراني إلى مبارزة جرير، وألح على ألفونسو في تحقيق ذلك، فركب ألفونسو في حريدة من جيشه، وبصحبته الفارس النصراني وأصحابه، حتى نزلوا حول قلعة رباح، فظن جرير أن الملك ألفونسو غدر ونكث عهده، فبعث إليه أحد رجاله يذكره بالعهد والصلح، غير أن الفونسو أفهمه أنه لم يأت لحرب، أو نكثًا للعهد، وإنما لإتاحة الفرصة أمام الفارس النصراني، الذي رغب في مبارزة جرير بن عكاشة، وكان جرير به وعكة، فابتدر بعض أصحابه لمبارزة النصراني، غير أنه رفض إلا مبارزة جرير قائلاً: «لست أبارز منكم أنفًا، وإنما أردت مبارزته لشائع ذكره أنه فارس أهل دينه، لأغلب بغلبته المسلمة، كما غلبت النصرانية»، فعزم جرير على الخروج لمبارزته، وفي اليوم التالي خرج ألفونسو، وبصحبته القومس ومعهما رجالهم وفرسانهم، لحضور المنازلة بين الفارسين اللذين طال صراعهما، وعراكهما في الميدان، ثم لاحت لجرير فرصة فطعن الفارس النصراني طعنة نجلاء خَرَّ على إثرها صريعًا، ثم نزل فقطع رأسه، ولما رأى الفرسان النصارى ما حَلَّ بصاحبهم هَمُّوا بالهجوم على جرير، فمنعهم ألفونسو من ذلك، وقد أبدى ألفونسو إعجابه بشجاعة جرير وبسالته، ثم كَرَّ عائدًا إلى بلاده (٦١) .

ويعلق ابن الصيرفي على هذه المنازلات، والمبارزات بين فرسان المسلمين، وفرسان النصارى بقوله: «وقد نزلت هذه المبارزة عند الروم بمنزلة الشهادة القائمة في استخراج الحقوق المشكلة، والأمور المبهمة، لعلو صاحب الحق بها، وفلجه على خصمه، وفوز قدحه، كذلك ما كانت بين مسلم ونصراني إلا أظهر الله الحق، وفاز المسلم بالسبق، وما أقول ذلك على جهة الندور، بل هو المتعارف المشهور، وإنها لخطة عربية، لكن معناها عند العرب أينا أنجد، وعند العجم أينا المحق، والأظهر في أمر هذا الرومي المعنى العربي إلا أن يكون أراد أينا على الحق في اتباع دينه وحماية شرعه فهنا يغلب هو وغيره من أهل ملته ويستند في ذلك إلى أن المحق من النصرانيين يغلب المبطل، فكيف لا يغلب المسلم النصراني؟» (٦٢) .

ويتضح لنا أن الهدف المنشود من وراء هذا اللون من القتال، إثبات أي الطرفين من المتبارزين أشجع، وأفرس وهي من أساليب الحرب المعروفة عند العرب، وكانوا يستهلون بها المعارك والمواقع، غير أن هدفها في ميادين الجهاد بين المسلمين وأعدائهم ينصرف إلى معنى آخر، وهو أي الطرفين أحق، وأصدق معتقدًا، ويذكر ابن عاصم أن هذه المبارزة لا تزال باقية، ويقوم بها كثير من قادة وفرسان الإفرنج في معاركهم، ومواقعهم، (وكأنها شاهدة فيما يظهر منهم للمحق على المبطل إن نكص عن قرنه، أو ظهر قرنه عليه) (٦٣) .

ويمدنا ابن عاصم ببعض المعلومات التاريخية القيمة النادرة عن بعض الشخصيات الغرناطية، ومنهم الوزير ابن الخطيب، والوزير رضوان النصري (٦٤) وهما من الشخصيات البارزة في البلاط النصري، ووردت لهم تراجم في كتب الطبقات، غير أن ابن عاصم يورد لنا بعض المعلومات النادرة عن سيرتهما، فيذكر أن ابن الخطيب شرع في بناء دار له تقع في بستان خارج غرناطة، ويبدو أن ابن الخطيب لم يتنبه إلى أن البناء حين يعلو فسوف يكون مصدر أذى لجاره، واستخف ابن الخطيب بهذا الأمر حتى أزعج جاره، الذي طلب منه أن يكف أذاه عنه، غير أن ابن الخطيب لم يعره اهتمامًا ولم يتجرأ الرجل أن يشكو ابن الخطيب إلى السلطان، لعلمه

بمكانته منه، ومضت الأيام على ذلك، ثم التقى ابن الخطيب بالرجل فقال له على سبيل الازدراء هل رفعت في؟ فقال: نعم قال: وهل صدر لك جواب؟ فقال له: نعم. فقال له: وما قيل لك في الجواب؟ قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا﴾ سورة الطور آية (٤٨) فصرخ ابن الخطيب صرخة عظيمة، وقال: حسبي الله، وكَرَّ راجعًا إلى بستانه، فأمر بهدم ما بناه من البنيان المطلة على جاره (٦٥).

وهذه القصة التي رواها ابن عاصم، تكشف لنا عن بعض الجوانب الأخلاقية في سيرة ابن الخطيب، ومدى ما كان يوليه من إكبار، وتقدير للشرع، وتعاليمه، فقد أحس بتجاوزه، وظلمه، وأدرك ما يترتب على ذلك من عواقب وخيمة، ومصير مظلم، فأقلع عن ظلمه وأب لنداء ربه.

ويروي ابن عاصم أيضًا قصة جرت للوزير رضوان النصري، وكان من الشخصيات البارزة في الدولة النصرية، وحدث أن وقع بينه وبين أحد أعيان غرناطة خلاف شديد، أدى إلى مقاطعة، وشحناء بينهما، ثم تصادف أن التقيا، فقال الوزير رضوان لذلك الرجل: «والله ما ترى على يدي رزقًا ما أبقاني الله هنا» فرد عليه الرجل بقوله: «إن قُضي لي برزق فسيكون الخل في مناخرك» ، ويقصد بها في هذه الحال ما تقوله العرب «رغمًا على أنفك» ثم ذهبت الأيام حتى احتاج السلطان إلى سفير يبعثه إلى الدولة المرينية (٦٦)، فبحث عمن يقوم بهذه المهمة خير قيام، فلم يجد من يقوم بها على هذه الصفة سوى ذلك الرجل، وحاول الوزير رضوان أن يصرف السلطان عن تقليد الرجل هذه المهمة، غير أن السلطان أصرَّ على اختياره، فأمر بتجهيزه بكل ما يلزم من المال والكسوة، وعهد إلى الوزير رضوان تنفيذ ذلك، فأمر بإحضار الرجل فأعلمه باختيار السلطان له سفيرًا إلى المغرب، وقدم له المال والكسوة، واستحضر الوزير إناء به خل وجعل يستنشقه أمام الرجل تذكيرًا له بما قال في بداية المقاطعة بينهما، وانصرف الرجل لأداء مهمته كسفير للسلطان إلى بني مرين.

وفي الكتاب إشارات إلى بعض الشخصيات ذات العلاقة بالسلطان الأيسر، ومن هذه الشخصيات زوجة السلطان، وتدعى أم الفتح بنت أبي الحجاج يوسف المستغني بالله ابن الغني بالله، ويطنب ابن عاصم في الثناء عليها، ومدح أخلاقها، وسيرتها، ومسارعتها إلى الخيرات، والصدقات، وأعمال البر، (مما لا يضاهيها فيها إلا زبيدة) إلى جانب ما كانت عليه من الذكاء، والفطنة بأحوال الدولة، وتصريف أمورها، واهتمامها البالغ بالعلم، وأهله، فكان السلطان الأيسر يستشيرها في أمور الدولة، وتصريف شئونها(٦٧)، وهي معلومات مهمة وقيمة توضح لنا جانبًا مما كانت عليه المرأة في الدولة النصرية، وعلاقتها بميادين النشاط الإنساني المختلفة، فامتد تأثيرها إلى المجتمع، وكانت عاملاً مؤثرًا في ميدان السياسة والعلم والمدنية.

ومن الشخصيات التي لها صلة بالسلطان الأيسر، الأمير المنصور محمد ابن عم السلطان، وقد أورد ابن عاصم شيئًا من سيرته، ووصفه بجميل الخلال، وحميد الصفات، وأنه كان صهرًا للسلطان، وقام بدور كبير في تدعيم حكم السلطان الأيسر، والصمود في وجه خصومه، والناقمين عليه، ويشير ابن عاصم إلى دوره في ميدان الجهاد، والدفاع عن الثغور، أمام خطر النصارى، واندفاعهم نحو بلاد المسلمين (٦٨).

وأخيرًا؛ فهذه إشارات تاريخية مهمة، حفظها لنا ابن عاصم في كتابه جنة الرضا، وقد جاءت هذه المادة التاريخية، في سياق التدليل والبرهنة على ما استهدفه ابن عاصم من آراء، وأفكار عرضها حول محور البلاء المتوقع، وكيفية مواجهته، وقد كان لذلك أكبر الأثر في الاحتفاظ بمعلومات تاريخية عن عصر اتسم بالاضطرابات، والقلاقل، والمحن، وتكالب النصارى على المسلمين في الأندلس، وهو يمثل صفحة شبه مجهولة في تاريخهم، وكأنهم رغبوا في الصمت، وكتمان ما يجري حولهم، لفظاعته وما ينبي عنه من زوال سلطانهم وذهاب ريحهم والله غالب على أمره.

الهوامش

* طبع هذا الكتاب بدار البشير في عمّان بالأردن، بتحقيق صلاح جرار ويقع في ثلاثة أجزاء.

١ - انظر ابن عاصم: **جنة الرضا في التسليم بما قدر الله وقضى**. ج٢. ص ٢٠٣- ٢٠٤ وعن ترجمة والده انظر دائرة المعارف الإسلامية، ج١. ص٢١٩- ٢٢٠.

٢ - يمكن الرجوع إلى مقدمة المحقق ج١، ص٣٦.

٣ - **نفح الطيب**، ج٦ ص ١٤٨ - وانظر كتابه الآخر **أزهار الرياض**. ج ١ ص ١٤٥.

٤ - المقري: **أزهار الرياض**، ج١. ص ١٤٥.

٥ - مخلوف: **شجرة النور الزكية في طبقات المالكية**، ص ٢٤٨.

٦ - محمد عنان: **نهاية الأندلس** . ص١٥٥- ١٥٦ - شكيب أرسلان: **خلاصة تاريخ الأندلس** ص١٢٠- ١٢١.

٧ - انظر **جنة الرضا** ج١. ص٢٩٨ وما بعدها ويوسف ابن المول من أعيان غرناطة يمت بصلة النسب إلى بني الأحمر عن طريق أمه بنت السلطان محمد بن يوسف بن الغني بالله (محمد عنان، مرجع سابق، ص١٥٨).

٨ - شكيب أرسلان: مرجع سابق ص ١٢١.

٩ - **جنة الرضا**، ج١/٣٠٤ - ٣١١ - ٣١٥.

١٠- انظر مقدمة المحقق. ج١ ص٣٠- ٣١ وكذلك يوسف شكري: **غرناطة في ظل بني الأحمر**/ ٥٣ وما بعدها.

١١- ج٢/٣٠٨.

١٢- انظر المقري: **أزهار الرياض**. ج١/١٤٥.

١٣- **جنة الرضا**، ج١ ص ٢٦١.

١٤- ج١. ص ٢٦٣.

١٥- ج١. ص ٢٠٩.

١٦- ج١/٢٦٣. لمعرفة المزيد عن وظيفتي قاضي الجماعة وصاحب الشرطة الكبرى انظر يوسف شكري، **غرناطة في ظل بني الأحمر**، ٩٠ - ٩٧.

١٧- ج١/٢٦٨.

١٨- ابن عاصم. ج١ . ص ٢٦٠.

١٩- ج٢. ص ١٥٥.

٢٠- انظر على سبيل المثال. مجلة **عالم الفكر**، المجلد العاشر. العدد الأول، ١٩٧٩م وهو عدد مخصص حول ظاهرة الاغتراب بمفهومها الواسع.

٢١- ومدينة مالقة المذكورة أشهر مدن مملكة غرناطة بعد حاضرتها وكان لها دور كبير في الأحداث التي عصفت بملك السلطان الأيسر. وانظر عن تاريخ المدينة وموقعها (الحميري. **الروض المعطار**، ص٥١٧ وما بعدها).

٢٢- ج٢/١٥١- ١٥٢.

٢٣- ج٣/ ٦٣.

٢٤- ج١/ ٢١٣ - ٢١٤.

٢٥- ج١/٢١٧ - ٢١٨. انظر نص الحديث النبوي لدى المنذري، **الترغيب والترهيب**، ج٣، ص١٠ وقد رواه أبو داود وابن ماجة.

٢٦- ج١/ ١٧٨.

٢٧- ج٢/ ٢٧١. والخليفة المقتدر هو: جعفر بن أحمد تولى الخلافة ٢٩٥ هـ/ ٩٠٧م وقُتل ٣٢٠هـ/ ٩٣٢هـ. وابن المعتز هو عبدالله ابن المعتز بن جعفر أحد أمراء بني العباس، حاول خلع المقتدر ٢٩٦ هـ م /٩٠٨م، غير أنه فشل. (انظر المسعودي : **مروج الذهب**، ج٢ ص٢٩٣- ابن خلدون: **تاريخ ابن خلدون** ج٣، ص ٤٤٧ وما بعدها وفيه إشارة إلى مصادرة أموال القاضي أبي عمرو).

٢٨- ٢/ ٢١٨ - ٢١٩.

٢٩- ج٢/ ص ٢٨٠ - ٢٨١.

٣٠- كانت مدينة أنتقيرة من أملاك الدولة النصرية حتى تمكن الإسبان من اقتحامها سنة

٨١٥هـ/١٤١٢م وتقع أنتقيرة شمال غرب مالقة.

٣١- ج٢ / ٢٨٤.

٣٢- ج٢ / ٢٢٦.

٣٣- ج٢/ ٢٤ وما بعدها وانظر في الصفحة نفسها حاشية رقم (١٠).

٣٤- هو السلطان محمد بن يوسف الأول من أشهر سلاطين بني نصر حكم فترتين الأولى ٧٥٥-٧٦٠هـ/ ١٣٥٤ - ١٣٥٩م والثانية ٧٦٢ - ٧٩٤ هـ/ ١٣٦١-١٣٩٢م، انظر ابن الخطيب: **الإحاطة**، ج٢ ص١٣ وما بعدها.

٣٥- ج٢ / ٢٦ - ٢٧ - ٢٨.

٣٦- ٢/ ١٢٧ - ١٢٨.

٣٧- يبدو أنها البلدة التي تسمى مالقة ، وذلك من خلال فهم الأحداث التالية التي تشير إلى إكرام أهل مالقة للسلطان الأيسر.

٣٨- ج ١. ص ٢٩٨ وما بعدها.

٣٩- ج ١ / ١٨٦ وما بعدها.

٤٠- ذكوان ورنده إلى الغرب من مالقه. أما بلش وهي بلش مالقه فتقع شرق مالقه.

٤١- لعلها البلدة المسماة Alora وتقع شمال غرب مالقة .

٤٢- ج ١/ ٣٠٤ وما بعدها.

٤٣- ج ١ / ١٩٠ وما بعدها.

٤٤- ج ٢ / ٢٧٩.

٤٥- ج ٢ / ٢٨٠.

٤٦- جانب المحقق الصواب عندما ذكر أن حصن النجش قريب من مارده، وأين ماردة من غرناطة؟ فمارده تقع بعيداً شمال غرب قرطبة، وغرناطة في الجنوب الشرقي. وبحسب ما أفاده ابن عاصم من أهمية الحصنين لحماية وادي المنصورة، الواقع شرق غرناطة، فإن الحصنين يقعان قرب المنطقة المشار إليها.

٤٧- جانب المحقق الصواب عندما ذكر بقوله لعل بطلس تحريف لبطلش بمنطقة سرقسطه، وهو افتراض خاطئ ، وبعيد عن الصواب، إذ إن الوجود الإسلامي قد انحسر بمسافة شاسعة جداً عن منطقة سرقسطه، فكيف للمسلمين أن يبلغوا تلك النواحي القاصية في الشمال الشرقي من الأندلس، والصحيح أن بطلس بلس هي منطقة بلش، وهي إما بلش الحسناء أو بلش البيضاء ، وتقعان بالقرب من بعضهما في الشمال الشرقي من مملكة غرناطة.

٤٨- ٢ / ٢٨١ - ٢٨٢ وما بعدها.

٤٩- ج ١ / ٣٢٠ -٣٢١ وما بعدها.

٥٠- ج ١/ ٣٢٢ وما بعدها.

٥١- ج ٢/ ٢٨٣.

٥٢- ج ٢/ ٢٨٥-٢٨٦. وانظر حواشي الصفحتين المذكورتين.

٥٣- انظر ج ٢ / ٢٨٦ - ٢٨٧.

٥٤- ج ٢ / ٢٨٨.

٥٥- ج ٢ / ٢٩٦.

٥٦- ج ٢/ ٢٩٨ - ٣٠١.

٥٧- أورد له ابن عاصم قصة في موقعة النيبل بغرناطة، سنة ٤٧٨هـ، وهي الموقعة التي شهدت هجوم أحد قادة النصارى بجمع من رجاله يزيدون على أربع مئة فارس على مدينة غرناطة، وقد لحق المسلمين من وراء ذلك أذى شديد لتهاونهم بقوة النصارى، وكان لمقاتل بن عطية دور في التصدي لأولئك النصارى، والحد من خطرهم، وقد أورد هذه القصة ابن الخطيب في الإحاطة ج ٣ ص ٣٠٠-٣٠١ ولذا لم نذكرها، وانظر عن بني زيري: محمد عنان: **دول الطوائف**. ص ١٢٥ وما بعدها.

٥٨- ج ٢ / ٢٥٢.

٥٩- المعتضد هو عباد بن محمد بن إسماعيل ملك أشبيلية وغرب الأندلس، وكان من أشهر ملوك الطوائف، انظر ترجمته وتراجم أبنائه ابن بسام: **الذخيرة** / ق٢. ج١/١٤ وما بعدها - المراكشي: **المعجب**. ص١٣٨ وما بعدها.

٦٠- ج ٢ / ٢٥٣.

٦١- ج ٢ / ٢٥٦ - ٢٥٧.

٦٢- ج ٢ / ٢٥٥.

٦٣- ج ٢ / ٢٥٥.

٦٤- ابن الخطيب محمد بن عبدالله السلماني من أبرز رجال الدولة

النصرية انظر ترجمته لنفسه في الإحاطة ج ٤ / ٤٣٨ وما بعدها. أما رضوان النصري فكان أيضًا من مشاهير رجال الدولة النصرية، وكان صديقًا لابن الخطيب انظر ترجمته في **اللمحة البدرية**/٩٤- ١٠٣ وما بعدها.

٦٥- ج ٣ / ١٣.

٦٦- ج ١ / ٢٣٥.

٦٧- ج ٣ / ٧٥ -٧٦.

٦٨- ج ١ / ٣١٧ وما بعدها.

المصادر والمراجع والدوريات

أولاً - المصادر:

- ابن بسام: أبو الحسن علي (ت٥٤٢ هـ)/ **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**، تحقيق إحسان عباس، بيروت : دار الثقافة، ١٩٧٩م.
- الحميري: محمد بن عبدالمنعم (ت٧٢٧ هـ)/ **الروض المعطار في خبر الأقطار**. تحقيق إحسان عباس. ط ٢، ١٩٨٠م .
- ابن الخطيب: لسان الدين عبدالله (ت ٧٧٦هـ)/ **الإحاطة في أخبار غرناطة**. تحقيق محمد عنان. القاهرة مكتبة الخانجي - ج١، ط٢ - الأجزاء الثلاثة الأخرى ط١.
- ـــ / **اللمحة البدرية في الدولة النصرية**، بيروت : دار الأوقاف. ط٢، ١٩٧٨م.
- ابن خلدون: عبدالرحمن (ت ٨٠٨ هـ) / **العبر وديوان المبتدأ والخبر**. دار الفكر. ط ١، ١٤٠١هـ .
- المراكشي. عبدالواحد (ت٦٤٧هـ)/ **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**. تحقيق محمد العريان. القاهرة : مطابع شركة الإعلانات الشرقية، ١٣٨٣هـ.
- المسعودي. علي بن الحسين (ت ٣٤٦ هـ)/ **مروج الذهب ومعادن الجوهر**. تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد. ط٤ ، مصر: مطبعة السعادة ١٣٨٤هـ.
- المقري. أحمد بن محمد (ت١٠٤١هـ) / **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**. تحقيق إحسان عباس . بيروت : دار صادر، ١٣٨٨ هـ .
- ـــ / **أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض**. الرياض: صندوق إحياء التراث الإسلامي المشترك بين المملكة المغربية ودولة الإمارات العربية المتحدة. ١٣٩٨هـ.
- المنذري. عبد العظيم بن عبدالقوي (ت ٦٥٦ هـ) / **الترغيب والترهيب**. ضبط أحاديثه وعلق عليه. مصطفى محمد عمارة. ط٢. مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٨٨هـ.

ثانياً - المراجع والدوريات:

- شكيب أرسلان. **خلاصة تاريخ الأندلس**. بيروت دار مكتبة الحياة. ١٤٠٣هـ.
- محمد عبدالله عنان. **دول الطوائف**. ط٢. القاهرة: مكتبة الخانجي ، ١٣٨٩هـ.
- ـــ / **نهاية الأندلس**. ط٣. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٨٦هـ.
- محمد محمد مخلوف. **شجرة النور الزكية في طبقات المالكية**. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .
- يوسف شكري. **غرناطة في ظل بني الأحمر**. ط١. بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ، ١٤١٢هـ .
- مجلة **عالم الفكر**. المجلد العاشر. العدد الأول ١٩٧٩م عدد خاص حول ظاهرة الاغتراب بمفهومها الواسع.
- **دائرة المعارف الإسلامية**. ترجمة أحمد الشنتناوي وآخرين. دار الفكر ١٩٣٣م .

مكتبة الإسكندرية القديمة
دراسة بيوجرافية

محمد جلال سيد محمد غندور
قسم علوم المكتبات والمعلومات
كلية الآداب
جامعة الملك سعود

ملخص تدورفكرة هذا البحث حول التعريف بالشخصيات التاريخية التي أدت دوراً أساسياً في تاريخ مكتبة الإسكندرية القديمة، فبالرغم من أهمية هذه الشخصيات ومكانتها ليس في تاريخ مكتبة الإسكندرية فحسب بل في تاريخ الحضارة الإنسانية جمعاء، إلا أن ذكر العديد منها ورد في المصادر والمراجع - المتعلقة بتاريخ مكتبة الإسكندرية - بصورة مشوشة ومتداخلة سواء فيما يتعلق بأسمائهم أو بدورهم في تاريخ هذه المكتبة ، وقد رأيت بهذا العمل أن ألقي الضوء على هذه الشخصيات في صورة معجم أعلام مصغر، أوضح فيه الملامح الرئيسة لهوية هؤلاء الأعلام التي اختلطت ببعضها في عشرات البحوث والأعمال التي تناولت مكتبة الإسكندرية بالفحص والتحليل، وسيجد القارئ أن هذا البحث ليس مجرد ملف تراجم يتناول السير الذاتية، بل دراسة تحليلية للأعلام وإبراز دور كل منهم في تاريخ أعظم مكتبة تاريخية عرفتها الحضارة الإنسانية.

١ - تمهيد

هي مكتبة موغلة في القدم، ذات تاريخ عريق مليء بالأحداث الجسام يتسم بالغموض في كثير من نواحيه. ومضة فكرية أضاءت في ذهن واحد من رجالات السياسة الطموحين ليوحي بها إلى قائد عسكري فذ، حاكم دولة ذي فكر مستنير، استمع لها، فاقتنع بها، ومن ثم تبنى تنفيذها، لم يبخل بمال أو بجهد في سبيل ذلك .

أنشئت بشمال إفريقية، على ساحل البحر الأبيض المتوسط لتكون عاصمة لإمبراطوريته المترامية الأرجاء فنُسبت إليه وحملت اسمه ونعني بها مدينة الإسكندرية. أُختير لهذه المكتبة أفضل موقع بهذه المدينة الخالدة، بضاحية البروكيوم الملوكية BRUCHEIUM في موضع القلب من الصرح الأكاديمي الشامخ الموسيون -MOU SEION ، وهي كلمة يونانية تعني «معبد ربات الفنون»، ومنها اشتقت كلمة MUSEUM ، وبالرغم من موقعها الجغرافي، فقد انتمت هذه المكتبة إلى الحضارة الإغريقية (الهيلينية، الهلينسية)، بحكم انتماء مؤسسيها لهذه الحضارة.

احتضنت بين جدرانها معارف عالمية، تخطت حدود انتماءاتها الجغرافية والحضارية، وحظيت باهتمام العلماء والبحاث من عرب وعجم، وهو مالم تحظ به مكتبة قط على مر العصور، وبلغت شهرتها الآفاق حتى باتت معلمًا رائدًا للثقافة والعلوم العالمية، ورمزًا شامخًا للحضارة العلمية، ولا نجافي الحقيقة إذا ما أطلقنا عليها «المكتبة الأسطورة» .

عُرفت بمسميات شتى، ونعوت متعددة، منها؛ الخزانة الملوكية، خزانة الإسكندرية، مكتبة الإسكندرية، مكتبة الإسكندرية القديمة، مكتبة الموسيون، مكتبة الموسيوم، المكتبة الرئيسية، المكتبة الكبرى، المكتبة الأم، حيث انبثق عنها، وتولد منها مكتبة صغرى، عُرفت بالمكتبة الصغرى، المكتبة الابنة، ومكتبة السيرابيوم نسبة إلى اسم معبد الإله سيرابيس SERAPIS المعروف باسم سيرابيوم SERAPIUM الذي ألحقت به المكتبة الصغرى .

هذه التعددية الاسمية ليست بالملمح التعددي الوحيد الذي

تختص به هذه المكتبة المتفردة، فالتعددية صفة ملازمة لسيرتها وتاريخها، تلتصق بها بداية بقصة إنشائها ونهاية بروايات فنائها، لم يختلف العلماء والبحاثة في أمر مكتبة تاريخية ما، كاختلافهم عليها، ولم تتباين آراؤهم في التأريخ لمكتبة قديمة كتباينها حول هذه المكتبة، مما أحاطها بهالة فكرية يختلط فيها الوهم بالحقيقة، ويمتزج فيها الواقع بالخيال، فنسمع من أمرها ونعجب.

يروي بعض المؤرخين أن صاحب فكرة إنشائها العالم الإغريقي الشهير أرسطو (ويدعى أيضًا أرسطو طالس) صاحب مدرسة اللوقيوم LYCEUM الأثينية الشهيرة ومؤسس مكتبتها التي عُرفت باسمه، ويقال إنه أوصى بفكرة الإنشاء إلى بطليموس الأول (ويدعى أيضًا: بطلوماوس الأول، سوتر، وسوتير) أول ملوك البطالمة (البطالسة، البلاطمة) بعد الإسكندر الأكبر في حكم الإسكندرية، ويخالفهم في الرأي جمهرة من العلماء مؤكدين أن أرسطو لم ير أصلاً مدينة الإسكندرية، ناهيك عن رؤية مكتبتها، ويعزون فكرة إنشائها إلى ديمتريوس الفاليري (ويدعى أيضًا: ديمتريوس فاليري، ديمتريوس فاليروس، إلياس الأثيني، أما العرب فيدعونه بابن مُرَّه أو زُميره) ويقال إنه أوعز إلى بطليموس الثاني (ويدعى أيضًا: بطلوماوس الثاني، بطليموس فلادفوس، أو بطلوماوس فيلاذفوس) بإقامتها، وهو رأي ضعيف. أما جُل الباحثين فيؤكدون أن ديمتريوس الفاليري أوحى بفكرة هذه المكتبة إلى بطليموس الأول، لتقام ضمن منشآت أكاديمية الإسكندرية (الموسيوم)، وهو الرأي الأرجح عند الأغلبية. أما تاريخ إنشائها فمختلف عليه - أيضًا - فمنهم القائل بـ ٢٨٤ ق.م، ومنهم من ذكر ٢٨٥ ق.م، وذُكرت السنوات ٢٨٦ و ٢٩٠ ق.م كسنوات إنشاء، وتركوا لنا الخيار في الأخذ بما يناسبنا منها.

وتطالعنا المصادر بقائمة العلماء الذين أشرفوا على المكتبة وتولوا مسئوليتها وحملوا أمانتها أمثال: زينودتس (ويدعى أيضًا: زينودتس الروديسي)، أراتو ستينس (ويدعى أيضًا: أيراتو سثنيس القوريناني)، أرسطوفان (ويدعى أيضًا: أرسطوفان البيزنطي)، أرستوفانس البيزنطي)، أبو لونيوس الروديسي (ويدعى أيضًا: أبو لونيوس الرودي)، أبو لونيوس أيدوجرافوس (ويدعى أيضًا: أبولونيوس الأيدوجرافي)، أرستارخوس (ويدعى أيضًا: أرستارخوس الساموثريسي)، أو نسند القبرصي (ويدعى أيضًا: أونسندر القبرصي)، وخيرمون الإسكندري (ويدعى أيضًا: كيرمون الإسكندري). أما أشهر من عمل بها فيكاد يكون كاليماخوس (ويدعى أيضًا: كاليمارخوس) صاحب فهرسها وببليوجرافيتها الشهيرة " البيناكس PINAKES » التي لم يصلنا منها إلا اسمها والكتابات عنها، وبسبب هذا العمل يحلو لبعض الباحثين تسمية كاليماخوس بـ "أبو الببليوجرافيا".

أما فيما يخص مقتنيات المكتبة فحدّث ولا حرج، فما من مرجع ولا أثر يتفق مع الآخر فيما يورده من أرقام، وحتى بالمرجع الواحد نجد أن الباحث يورد أكثر من إحصاء بغرض توخي الدقة أو لتفادي الحرج، ويبدأ مزاد الأرقام بـ ٤٣ ألفًا، تتصاعد تدريجياً لتأخذ الأعداد التالية: ٤٥ ألفًا، ٥٤ ألفًا، ١٢٠ ألفًا، ٧٠ ألفًا، ١٠٠ ألف، ٢٠٠ ألف، ٥٠٠ ألف، ٥٣٢ ألفًا، ٥٤٠ ألفًا، حتى تستقر عند الرقم ٧٠٠ ألف، وقد تعمدت أن لا أذكر تميز الأرقام فهي أيضًا مختلفة في مسمياتها، وتأخذ أشكالاً متنوعة، فتارة "الكتاب" ، وأخرى "المجلد"، وأحيانًا "اللفافة"، وقد يكون "المخطوط" أو "البردية". وكما نرى حتى مسمى شكل الوعاء اختلف عليه العلماء، وقد نجد منهم من يحذرنا من الأخذ بهذه الأرقام على علاتها حيث - حسب قولهم - إن ما يسمى مجلداً أو كتابًا أو مخطوطًا أو لفافة أو بردية في المكتبات القديمة لا يرتقي حجمًا أو شكلاً إلى المفهوم الحديث المتعارف عليه للكتب أو المجلدات العصرية، ويؤكد أحدهم - بعد استعراضه لعملية حسابية قياسية مقارنة - بأن الشكل القديم يوازي حوالي ١٠٪ فقط من حجم المجلد أو الكتاب العصري، وعليه نستطيع استنتاج أن مقتنيات مكتبة الإسكندرية لم تبلغ في أعلى تقدير لها أكثر من ٧٠٠٠٠ (سبعين ألف) مجلد، إذا ما قيست بمعايير العصر، أما إذا أخذنا بأقل التقديرات ٤٣٠٠٠ (ثلاثة

وأربعون ألفًا). فسنجد أن مقتنياتها لن تزيد – من زاوية الكم – على مقتنيات مكتبة عامة متواضعة في أية مدينة عربية! أما تفسير ظاهرة عدم وصول هذه الـ ٧٠٠ ألف مجلد (أو بلغة العصر الـ ٧٠ ألفًا) إلينا – إلا النذر اليسير منها – (الجدير بالذكر أن أيًّا من المراجع قديمها وحديثها لم يتعرض لذكر عدد الوثائق التي وصلتنا أو انتقلت إلينا من مخلفات مقتنيات المكتبة، وهو أمر مثير للتساؤل نظرًا للكم الهائل من البحوث والإنتاج الفكري الذي نشر حول هذه المكتبة!)، أقول ويتضح تفسير الظاهرة – حسب رأي الباحثين إلى النهاية الدرامية التي انتهت إليها المكتبة، والتي حيكت حولها الكثير من الروايات، واجتهد العلماء المؤرخون في تحقيقها وتمحيصها في محاولة منهم لبيان الحقيقة وتفسيرها. وبالرغم من تلك المحاولات العلمية البحثية الجادة، إلا أن أيًّا ممن تعرضوا لهذه المعضلة البحثية لم يستطع أن يجزم بصحة روايته أو ينفي روايات الآخرين، إلا في حالة واحدة، حيث أجمع عليها رأي الكثير من العلماء والباحثين والمؤرخين القدامى والمحدثين، ونعني بها رواية إحراق العرب لمكتبة الإسكندرية القديمة إبان فتح عمرو بن العاص لمصر، في عهد خليفة المسلمين الفاروق عمر بن الخطاب، رضي الله عنهما، فهي الرواية الوحيدة التي وجدت رغم نفيها ودحضها، ليس من قبل علماء العرب والمسلمين وباحثيهم فحسب بل من جانب الكثير من علماء العجم ومستشرقيهم قديمهم وحديثهم.

يُرجع العلماء أصل هذه الرواية إلى فقرة قصيرة وردت في نص قديم قام بكتابته عبداللطيف البغدادي الطبيب العربي المسلم القادم من بغداد في زيارة لمدينة الإسكندرية، تعرض فيه لوصف أكاديميتها الشهيرة (الموسيون)، وأورد في النهاية عبارة لم يُرجعها إلى أي مصدر كان، بل جاءت كجملة عفوية أو كنبت شيطاني – مستقاة في الغالب من أقاويل العامة وشائعات المغرضين والله أعلم – فقد جاء في نهاية نصه مايلي «وفيها (أي الأكاديمية) خزانة الكتب التي أحرقها عمرو بن العاص بإذن عمر – رضي الله عنه –». تلك العبارة على قصرها فتحت علينا نحن العرب المسلمين بابًا من الشائعات والأقاويل والاتهامات، ووجدت صدًى في نفوس المغرضين والمتربصين بالأمة العربية والإسلامية فروجوا لها ودعموها بالأسانيد الباطلة ونشروها في العالم أجمع، وقد أخذت هذه العبارة منا ومن المدافعين عن الحق من جمهرة المستشرقين الجهد الجهيد حتى استطعنا الرد عليها ودحضها وإثبات عدم صحتها. إلا أن جمهور الباحثين يكاد يجمع على أن أول رواية منمقة ومزوقة متكاملة الحبكة ذات بداية وعقدة ونهاية، قام بصياغتها أو بالأحرى بتلفيقها سواء عن جهل وعدم اطلاع أو عن قصد ونية مبيتة، المؤرخ العربي أبو الحسن علي بن يوسف القفطي صاحب كتاب «إخبار العلماء بأخبار الحكماء» (ويطلق عليه أيضًا: القفطي، ووجدناه مذكورًا في بعض المراجع بجمال الدين القفطي. مما قد يشكك القارئ في صحة التسمية ونسبتها للرواية)، وقد أبدى الكثير من الباحثين دهشتهم واستياءهم، بصدور هذه الرواية عن عالم عربي مصري مسلم كان أولى به التصدي لها ودحضها عوضًا عن سردها ونشرها، وعلى ما جاء في الأثر فقد نقل عنه هذه الرواية جريجور (غريغوس) بن هارون أبو الفرج الملطي النصراني (ويدعى أيضًا: أبو الفرج الملطي، ويرد اسمه في بعض المراجع بأبي الفرج العبري)، وتداولها عنه أو عن القفطي العديد من المؤرخين القدامى، منهم أبو الفداء إسماعيل بن علي الأيوبي، وتاج الدين أحمد ابن علي المقريزي. وأشهر من أيّد الرواية من المحدثين، جرجي زيدان في كتابه "تاريخ التمدن الإسلامي" المنشور عام ١٩٥٨م، وقد تصدى له جمهرة من الباحثين مفندين مزاعمه وادعاءاته. أما أحدث ظهور لهذه الرواية – حسب علم الباحث – فيعزى إلى شخص يدعى المطران ألكسندر جحا النصراني الذي أورد هذه الرواية في كتاب له مترجم بعنوان "تاريخ الكنيسة المسيحية" نشر عام ١٩٦٤، ويدعي – أي هذا الجحا – أنه ترجمة لكتاب من تأليف شخص يدعى سميرونوف، وهو يبدو من اسمه روسي الأصل، وقد رد عليه في حينه الباحثون العرب والمسلمون بالعديد من المقالات، وقد وجه له أحدهم في نهاية مقاله العبارة التالية «واعلم أيها الرجل أن الله الذي تعبده لا يرضى عن سلوكك هذا وسيحاسبك عليه وعلى غيره، فلا تظنن أنك بما تفعل تتقرب

إليـه فـهـو جل شـأنه لا يرضى بالكذب ولا يحب الكذابين والمفترين والظالمين، هداك الله وشفاك مما أنت فيه» ونعتقد أن هذا المطران المزعوم لم يُسمع عنه بعد ذلك.

تؤكد الروايات الأخرى التي تناقلتها أقلام الباحثين، فيما يتعلق بنهاية مكتبة الإسكندرية القديمة على اختلافهم وتباين آرائهم، حتى فيما يتعلق بمصير هذه المكتبة ونهايتها، فمنهم من آثر أن يجعلها نهاية طبيعية مألوفة، وادعى بأنها بليت كما تبلى الأشياء المادية، شأنها في ذلك شأن عشرات ومئات المكتبات القديمة، إلا أن الكثيرين لم يرضوا لها هذه النهاية النمطية، ولا هذه الرؤية المتسمة بالخفة، والتي لا تتناسب مع عظمة مكتبة الإسكندرية ومكانتها، التي يجب أن تحظى بخاتمة تتوافق مع عظيم شهرتها وعراقة تاريخها، فقال بعضهم بإحراقها على يد جنود يوليوس قيصر عام ٤٧ ق.م (وبعضهم ذكر ٤٨ ق.م)، في حادثة حرق الأسطول الشهيرة (وهي الرواية الأكثر شيوعًا وقبولاً بين العلماء)، وبعض آخر فضل أن تكون نهايتها بالتدمير على يد الإمبراطور أوزليان (ويدعى أيضًا: أوريليون، وأوليان) وجنوده في أواخر القرن الثالث الميلادي عام ٢٧٣م، والبعض يذكر الإمبراطور ثيودوسيوس (ويدعى أيضًا: تيودوسيوس) الذي وجدنا ذكره يرد مرة مرتبطًا بحرق المكتبة الكبرى (الإسكندرية القديمة)، وأخرى في تدمير ابنتها (السيرابيوم)، التي يكاد يجمع الباحثون على دمارها في عهده، وإن كان اسمه قد ورد بصور مختلفة، فمرة تيودوسيوس - كما أسلفنا- وأخرى طيودوس (ونظنها ترجمة عربية محرفة للاسم)، كما ورد بـ دقليدانوس (ونظنه اسمه الثاني على عادة أباطرة الرومان)، المهم أياً كان اسمه، فقد قام هذا الإمبراطور - حسب روايات المؤرخين - بتحريض من الأسقف تيوفيل (ويدعى أيضًا: تيوفيلوس، تيوفلس) بالأمر بتدمير معبد الإله سيدابيس وملحقاته التي شملت المكتبة، وأشرف على تنفيذ هذا الأمر ومتابعته الأسقف المذكور عاليه، إلا أن البعض يُرجع دمار المكتبة الابنة (السيرابيوم) إلى الإمبراطور الروماني جيوفان عام ٣٦٣م (ذُكر أيضًا عام ٣٦٤م)، وهكذا اختلف المؤرخون على الخاتمة، فيما يتعلق بالأشخاص أو الأزمنة، وإن اتفقوا في الوسائل، سواء بالحرق أو التدمير أو التخريب.

بهذا أسدل الستار على فصول ملهاة مكتبة الإسكندرية الشهيرة، التي لم ولن تجد مكتبة تاريخية قديمة ما وجدت هذه المكتبة من اهتمام من لدن هذا العدد الكبير من العلماء والبحاث.

٢- مقدمة الدراسة البيوجرافية

لم يكن القصد من هذا العرض السريع، أن نؤرخ أو نحلل، أو حتى نتعرض بالإيضاح لقضية مكتبة الإسكندرية القديمة، بل كان هدفنا الأساسي توجيه عناية القارئ إلى هذا الكم الكبير من الشخصيات التي ارتبطت تاريخياً وبحثياً بصورة أو بأخرى بهذه المكتبة العظيمة، منذ إنشائها وحتى نهايتها، وهي فترة تربو على قرنين من الزمان (٢٨٤ ق.م - ٤٧ ق.م).

ويلاحظ ثمة وجود لظاهرتين تتعلقان بالشخصيات التي وردت أسماؤها مرتبطة بمكتبة الإسكندرية القديمة، أولاهما: عظم هذه الشخصيات ودورها المؤثر ليس فقط في تاريخ مكتبة الإسكندرية، بل في التاريخ الإنساني ككل، فمنهم الملوك والأباطرة العظام، ومنهم القواد العسكريون الأفذاذ، وفيهم العلماء الأجلاء، وغيرهم من المشاهير الذين أدوا أدواراً مهمة في التاريخ الإنساني، حيث يشكلون في مجملهم "مجتمع الصفوة"، كانت مكتبة الإسكندرية وتاريخها نقطة الالتقاء لهم جميعًا، ويرجع من هذه الحقيقة أن مكتبة الإسكندرية القديمة، قد عرفت بهم، واكتسبت أهميتها وذاعت شهرتها من ثقلهم التاريخي وأسمائهم المضيئة في الحضارة الإنسانية، والتساؤل هنا: هل كانت مكتبة الإسكندرية القديمة ستحظى بمثل هذه الشهرة والعالمية لو لم يرتبط تاريخها بهؤلاء العظام؟، وبعبارة أخرى، هل كانت ستلقى هذا الاهتمام لو أنها أنشئت في مدينة ساحلية متواضعة، بمبادرة من حاكم خامل الذكر، وتولى أمانتها والعناية بها علماء مغمورون، وارتبطت نهايتها بشخصيات نكرة؟ تساؤلات قد يصعب الإجابة عنها في وقتنا الحاضر. أما الظاهرة الثانية: فتبدو

للوهلة الأولى متناقضة مع ما قيل حول هذه المكتبة والشخصيات التي ارتبطت بها، فبالرغم من ثبوت عِظم هذه الشخصيات وذيوع صيتها كأعلام تاريخية، إلا أن أسماء هؤلاء وردت بالإنتاج الفكري الذي تناول المكتبة بشكل مشوش، حيث بلغ الأمر في بعض الأحيان أن ترتبط الشخصية نفسها بذات المسمى أو بمسمى آخر بأحداث متفرقة في أزمنة مختلفة، حسب الرؤية الموضوعية لمؤلفي الأعمال، مما يجعل مهمة الباحث عن الحقيقة في الربط الصحيح ما بين الأحداث والشخصيات التي ارتبطت بها جد صعبة، وينعكس ذلك بالتالي على صحة الدور الذي قامت به كل منها في تاريخ المكتبة، وقد يفسر البعض هذه الظاهرة على أنها إنتاج طبيعي لاختلاف أساليب ترجمة الأسماء الأعجمية (لاتينية وغيرها) إلى العربية، فإن صح هذا، فما بال الأسماء العربية التي لا تحتاج إلى ترجمة، وقد أوردنا مثالاً على ذلك (القفطي، هل هو: أبو الحسن بن يوسف القفطي؟ أم جمال الدين القفطي؟، وكلا الاسمين وردا بالمراجع مرتبط بالواقعة نفسها، وقد يدعي البعض أن هذه سمة يجب القبول بها عند اتباع الأسلوب التاريخي في البحث العلمي، حيث الاعتماد على الفروض الوضعية والاستقراء للأحداث، واستكمال الرؤية البحثية من خلال مصادر المعلومات الوثائقية التاريخية المتاحة أمر طبيعي، في ظل أسلوب بحثي تغيب فيه الحقائق الثابتة القائمة على المشاهدة الفعلية والتجربة العملية، وهذا أمر صحيح لا جدال فيه، ولا يُنقص هذا الأمر – بتاتًا من أهمية الأسلوب التاريخي وقيمته كمنهجية معتمده في مجال البحث العلمي. إلا أن تأثر بعض الباحثين "بالهالة الأسطورية" التي أحاطت بتاريخ هذه المكتبة دفعهم إلى الإسراف في استخدام فروض بحثية لا ترتكز على أسس موثوق بها، مما أدى إلى إنتاج بعض البحوث التي تغلب فيها التفسير الظني للأحداث والتحليل الروائي للشخصيات على الرؤية العلمية.

انطلاقًا من هذه الرؤية البحثية التي تعتمد على محورين أساسيين :

أولهما: يتعلق بعظم الشخصيات التي وردت في البحوث المتعلقة بمكتبة الإسكندرية القديمة، وأهميتها التاريخية، وهو الأمر الذي أكسب المكتبة حظوتها لدى الباحثين ومكنها من تبوّء المرتبة العالية في تاريخ المكتبات القديمة.

وثانيهما: اللبس الذي صاحب ذكر العديد من هذه الشخصيات في البحوث المنشورة سواء فيما يتعلق بمسمياتها، أو فيما يختص بالدور الذي قامت به كل منها في تاريخ المكتبة.

أقول، انطلاقًا من هذه الرؤية، فقد رأيت أن أقوم بعمل حصر شامل لكل الشخصيات التي وردت أسماؤها بصورة أو بأخرى، مرتبطة بمكتبة الإسكندرية القديمة، وتصنيفهم، ومن ثم ترتيبهم في معجم أعلام مُصغر، ولا أهدف بهذا العمل إلى بيان السير الذاتية للشخصيات موضع البحث، بقدر ما أسعى إلي التركيز على العلاقة التي ربطت ما بين هذه الشخصيات ومكتبة الإسكندرية القديمة في فترة ما من حياتهم ، كما أنني ركزت على العلاقات التي نشأت عن ارتباط هذه الشخصيات بأحداث مرت بها المكتبة ونُسبت إليهم وتداولتها المراجع والمصادر المختلفة، وقد توخيت أن أذكر الشخصيات بمسمياتها المختلفة التي وردت بها في الأعمال والبحوث المنشورة، وذلك بغرض مساعدة الباحث في التعرف إلى الشخصية التاريخية وعلاقتها بمكتبة الإسكندرية، أيّاً كان الاسم المستخدم للتعريف بهذه الشخصية في المصدر أو المصادر التي اعتمد عليها الباحث. آملاً أن يساعد عملي هذا في إنارة الرؤية أمام الباحثين المهتمين بسيرة أشهر ما عرف التاريخ من مكتبات.

٢ . ١ الملامح العامة لملف الأعلام

يحتوي هذا الملف على ثلاثين شخصية وردت أسماؤها مرتبطة بتاريخ مكتبة الإسكندرية القديمة، بصورة أو بأخرى، وقد توخيت في اختياري لهذه القائمة أن تكون شاملة – بقدر الإمكان – بحيث لا يُغفل ذكر أي شخص أدى دورًا ما في تاريخ المكتبة منذ بدايتها كفكرة وحتى نهايتها، وقد اعتمدت في الإعداد لهذه القائمة على ١٠٣مراجع (٧٨ باللغة العربية) ، ٢٥ (باللغات الإنجليزية والفرنسية) ما بين كتاب ومقال وأطروحة واحدة – تم

إدراج بياناتها الببليوجرافية في قائمة المراجع في نهاية العمل - كما قمت بالاستعانة بعدد من معاجم الأعلام والموسوعات العربية والأجنبية لاستكمال المعلومات عن الأعلام التي وردت أسماؤهم بالقائمة [الاسم كاملاً، سنة الميلاد/ الوفاة، نبذة عن حياتهم ...إلخ]، وقد حرصت أن لا تظهر معلومات هذا الملف بصورة السيرة الذاتية للشخصيات المدرجة، واكتفيت منها بالقدر الذي يسهم بصورة مباشرة في توضيح دور لشخصية في تاريخ مكتبة الإسكندرية القديمة، كما ورد في المراجع التي تناولت هذا الموضوع.

٢ . ٢ تنظيم وترتيب الأعلام

قمت في هذا المعجم المصغر بترتيب أسماء الأعلام في قائمة بحسب ترتيب الحروف الأبجدية، مع اتباع أسلوب الترتيب "حرف بحرف"، وقد راعيت في المداخل استخدام الاسم الأكثر شيوعًا وشهرة، بغض النظر عما إذا كان ذلك الاسم يمثل الاسم الأول أو لقب العائلة أو الكنية، ويتساوى في ذلك أعلام العرب والعجم.

وبهدف إدراج أسماء الأعلام في ترتيب ألفبائي موحد، فقد استخدم الاسم المترجم إلى العربية لأسماء الأعلام العجم، وقد روعي في هذه القائمة القواعد التالية:

أ/ استخدام بوادئ الأسماء مثل: "أبو" ، "ابن" كمداخل لأسماء الأعلام عند الحاجة، مع مراعاة حروفها عند الترتيب الألفبائي للمداخل، مثال:

ابن العبرى، .....

أبو الفداء، ......

ب/ عدم الأخذ بـ ال (الألف لام) في الترتيب الألفبائي، متى ما وردت بالأسماء، سواء في الاسم المستخدم كمدخل أو في الأسماء التي تليه، مثال:

ال إسكندر ال أكبر (يعد الاسم بدأ بحرف أ، ولقبه بدأ بحرف أ أيضًا).

ج/ إعادة كتابة الأسماء بالحروف الأجنبية (الإنجليزية) في الجهة المقابلة للاسم العربي أو المترجم إلى العربية، مثال: أرسطو ARISTOTALE

عمر بن الخطاب OMAR IBN AL KHATTAB

د/ ذُكرت سنوات الميلاد والوفاة بين أقواس أمام الأسماء بالتقويم الميلادي، وقد استخدم هذا التقويم لكل الشخصيات الواردة في الملف بغية توحيد نظام السنوات المستخدم، لتسهيل عملية الضبط والمقارنة، وفي حالة العثور على سنوات متضاربة للشخصية نفسها توضع تلك السنوات في أسفل التاريخ الأكثر استخدامًا مسبوقة بعبارة "وتُذكر أيضًا التواريخ....". مثال:

إيراتو سثينس القوريناني (٢٧٥ - ١٩٥ ق م)

وتذكر أيضًا التواريخ (٢٨٦- ١٩٤ ق م)

هـ/ حال استحالة العثور على سنة ميلاد أو وفاة للشخصية المدرجة في الملف، توضع علامة (؟) أمام الفراغ المعني، مثال:

أرسطو فانس البيزنطي (؟ - ١٨٠ ق م)

و/ تم ذكر الأسماء المتعددة التي وردت بها الشخصية نفسها في المصادر البحثية المختلفة مسبوقة بعبارة "ويدعى أيضًا: ..."، وذلك بهدف إيضاح الرؤية للقارئ فيما يخص الشخصيات التي وردت أسماؤها بالمصادر بأكثر من مسمى، وهذه التقنية تساعد في التعرف إلى الشخصية أيًا كان الاسم الذي وردت به، مثال:

ديمتريوس الفاليري (٣٣٨ - ٢٨٢ ق م)

PEMETREIUS PHALIROS

وتذكر أيضًا التواريخ (٣٥٠ ق م)

ويدعى أيضًا: ديمتريوس فليري، ديمتريوس فاليروس، أما العرب فيدعونه أحيانًا إلياس الأثيني، وأخرى ابن مرة، وثالثة زميرة.

ز/ اتُبع نظام الإحالات (انظر، وانظر أيضًا). في حالة اشتراك الشخصيات في الواقعة نفسها، بغية توضيح دور كل منهم، ومساعدة القارئ في الربط ما بين الأحداث والشخصيات التي شاركت فيها حسب ماورد في المصادر البحثية المختلفة.

٢ . ٣ دراسة تحليلية لملف الأعلام

غطى ملف الأعلام ثلاثين شخصية تاريخية عاشت في الفترة ما بين ٣٨٤ ق م، و ١٤٤٢م (راجع سنة ميلاد أرسطو ووفاة المقريزي)، ولأغراض هذه

الدراسة قمنا بتحليل هذا الملف من خلال أربعة جداول إحصائية وأربعة أشكال بيانية، ارتكز كل منها على ملمح متميز من ملامح الأعلام المدرجين في الملف، وقد قادت نتائج التحليل السابق إلى الخروج بعدة مؤشرات يمكن تلخيصها في الآتي:

تشير التحاليل إلى أنه كان لازمًا لقيام مكتبة الإسكندرية واستمراريتها، تضافر جهود عدد من الأعلام ما بين علماء، وملوك، وحكام يبلغ عددهم خمسة عشر علمًا، فمن العلماء نجد ديمتريوس الفاليري، الذي ابتدع الفكرة وأشرف على التنفيذ، وأرسطو وإن كان لافضل له بفكرة الإنشاء، إلا أن مكتبته الأبيقورية كانت النواة الأولى لمقتنيات مكتبة الإسكندرية مما أدى إلى ارتباطها بفكر أرسطو أعظم فلاسفة عصره فاكسبها مكانة مميزة بين مكتبات الحضارة الهيلينية، بينما تولى الإشراف على المكتبة وتشغيلها في فترة ازدهارها ثمانية من كبار العلماء ومشاهيرهم، فنجد زينودوتس الناقد الأدبي اللامع (٢٨٢ – ٢٦٠ ق م)، كاليماخوس صاحب فهرسها المعروف بالبيناكس، والملقب بأبي الببليوجرافيا (٢٦٠ – ٢٣٥ ق م)، أبو لونيوس الروديسي الشاعر الملحمي الكبير (٢٤٠ – ٢٣٥ ق م)، إيراتو ستينس أعظم رجال العلم في العالم القديم (٢٣٥ – ١٩٥ ق م)، أريستو فان البيزنطي، أشهر اللغويين في العصور الكلاسيكية القديمة (١٩٥ – ١٨٠ ق.م)، أبو لونيوس أيدوجرافوس (١٨٠ – ١٦٠ ق م)، أرسطو خاروس، العالم النحوي الفذ (١٦٠ –١٤٦ ق م)، أونسندر القبرصي (١٠٠ – ٨٩ ق م)، وأخيرًا خيرمون السكندري الفيلسوف والكاتب السكندري الكبير (القرن الأول الميلادي).

أما دور الحكام فقد تجسد في مباركة الفكرة وتشجيعها، ومن ثم تمويلها وتقديم العون المادي والدفعة المعنوية للقائمين عليها. فكان بطليموس الأول (سوتر) المؤسس لها، وتابعه في رعايتها وتطويرها ابنه بطليموس الثاني (فيلاد دلفوس)، وسار على نهجهما بطليموس الثالث (يورجيتس)، أما الإسكندر الأكبر – كما أسلفنا في مقدمة هذا البحث – فتجلى دوره في اختياره لموقع مدينة الإسكندرية وإنشائها وإكسابها أهمية بجعلها عاصمة البلاد، مما أضفى على المكتبة التي ارتبطت بها الأهمية نفسها والمكانة العالية.

أما نهاية المكتبة، فقد لزم لها عدد من الأعلام لا يقل كمًا ولا شهرةً عما تطلبه بناؤها واستمراريتها، فنجد أن تلك النهاية ارتبطت بأسماء أربعة أباطرة؛ يوليوس قيصر، أورليان، ثيودوسيوس الأول، وجوفيان، بالإضافة إلى ملكة شهيرة ونعني بها كليوباترا السابعة، كما وردت أسماء مارك أنطونيو القائد العسكري الروماني في "رواية التعويض" المعروفة، وتيوفيلس بطريارك الإسكندية، الذي أوعز إلى الإمبراطور ثيودوسيوس الأول بدمار المكتبة الابنة "السيرابيوم"، عدا ما ارتبط بها من أعلام عبر الرواية الملفقة عن أحد الخلفاء الراشدين (الفاروق، عمر بن الخطاب – رضي الله عنه –)، وأحد كبار القواد المسلمين (عمرو بن العاص – رضي الله عنه –)، بجانب أحد العلماء اليعاقبة المصريين يحيى النحوي، هذا بخلاف خمسة من كبار المؤرخين؛ عبداللطيف البغدادي، القفطي، ابن العبري، أبو الفداء، المقريزي.

لذا نجد أن الجانب الإيجابي من تاريخ مكتبة الإسكندرية القديمة ارتبط بعدد الأعلام الذي ارتبط به جانبها السلبي، حيث كان العدد في كلا الحالتين خمسة عشر من أعلام التاريخ ومشاهيره أي ما يمثل ٥٠٪ في كلا الحالتين، من ناحية أخرى، أشارت التحليلات إلى أن نسبة الأعلام العرب تمثل ٣٠٪ من جملة الشخصيات التي ارتبطت بتاريخ مكتبة الإسكندرية القديمة، بينما يمثل الأعلام العجم نسبة ٧٠٪. وحيث تبلغ نسبة الأعلام العرب المعاصرين للمكتبة صفر في المئة (٠٪)، نجد أن نسبة المعاصرين من العجم تبلغ ١٠٠٪، ينتمي معظمهم إلى الحضارة اليونانية (١٨ شخصية تمثل ٨١,٨٪ من نسبة المعاصرين)، ويمثل هذا الرقم الشخصيات التي أبرزت إلى النور فكرة المكتبة وتولت إنشاءها وتنفيذها ورعايتها، والإشراف عليها وتشغيلها، ومن هنا يتضح جليًا حقيقة انتماء هذه المكتبة تاريخيًا وفكريًا وثقافيًا إلى الحضارة الهيلينية دون غيرها من الحضارات.

وضح من التحليل أن تاريخ مكتبة الإسكندرية القديمة امتد لفترة زمنية تقدر بحوالي ٦٧٥ عامًا، يمكن تقسيمها إلى حقبتين؛ الأولى تقدر بـ ٢٣٧ عامًا، تبدأ من ٢٨٤ ق.م إلى ٤٧ ق.م، والسنة الأولى

تمثل السنة المرجحة لإنشاء المكتبة الكبرى (الموسيون)، أما السنة الثانية فهو التاريخ المرجح للحريق الذي أتى على معظم مقتنيات المكتبة الكبرى (٤٠٠ ألف مجلد)، وتلك الحقبة تمثل فترة نمو وتطور المكتبة ووصولها إلى ذروة مكانتها العلمية والثقافية والأكاديمية. أما الحقبة الثانية فإنها تقدر بـ ٤٣٨ عامًا، تبدأ بالعام ٤٨ ق.م، وتنتهي بعام ٣٩١م، والسنة الأولى تؤرخ للسنة التالية للحريق الكبير لمكتبة الموسيون، حيث بدأت فترة انحسار خدمات المكتبة وتدهور مقتنياتها وبداية هجرة العلماء من أكاديمية الموسيون، أما السنة الأخيرة، فهي العام المرجح لتدمير المكتبة الابنة (السيرابيوم) على يد تيوفيلوس وأتباعه المتعصبين في حادثة تدمير معبد السيرابيس الشهيرة، مما أدى إلى نهاية آخر ما تبقى من مقتنيات مكتبة الإسكندرية الكبرى وابنتها المنكوبة.

يقودنا هذا التحليل إلى استنتاج أن تاريخ أشهر مكتبة في التاريخ القديم، ينقسم إلى فترة ازدهار وعطاء تمثل حوالي ٣٥٪ من عمرها، وفترة تدهور أدت إلى فنائها تمثل حوالي ٦٥٪ من تاريخها العريق. (انظر الجداول والأشكال البيانية (١)، (٢)، (٣)، (٤)، (٥)).

٣ – الجداول والأشكال البيانية

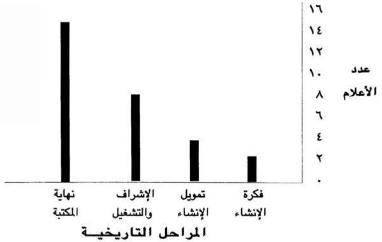
الجدول رقم (١)

الأعلام مصنفين حسب ارتباطهم بالمراحل التاريخية لمكتبة الإسكندرية القديمة

فكرة الإنشاء	تمويل الإنشاء والتنفيذ	الإشراف والتشغيل	النهاية	المجموع
٢	٤	٩	١٥	٣٠

الشكل رقم (١)

الأعلام مصنفين حسب ارتباطهم بالمراحل التاريخية لمكتبة الإسكندرية القديمة



الجدول رقم (٢)

الأعلام مصنفين حسب معاصرتهم للأحداث التاريخية

معاصرين	غير معاصرين	المجموع
٢٢	٨	٣٠

الشكل رقم (٢)

الأعلام مصنفين حسب معاصرتهم للأحداث التاريخية



الجدول رقم (٣)

الأعلام مصنفين حسب أجناسهم

عرب	عجم	المجموع
٩	٢١	٣٠

الشكل رقم (٣)

الأعلام مصنفين حسب أجناسهم



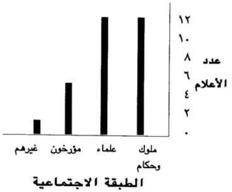
الجدول رقم (٤)

الأعلام مصنفين حسب طبقاتهم الاجتماعية

ملوك وحكام ومن في حكمهم	علماء	مؤرخون	غيرهم	المجموع
١٢	١٢	٥	١	٣٠

الشكل رقم (٤)

الأعلام مصنفين حسب طبقاتهم الاجتماعية



الجدول رقم (٥)

أمناء مكتبة الإسكندرية مرتبين زمنياً حسب سنوات توليهم أمانة المكتبة

الترتيب	الاسم	السنة		سنوات تولي أمانة المكتبة
		الميلاد	الوفاة	
الأول	زينودوتس الأفسسي	؟	؟ ق.م	٢٨٤. – ٢٦٠ ق.م
الثاني	كاليماخوس البرقاوي	٣٠٥	٢٤٠ ق.م	٢٦٠ – ٢٤٠ ق.م
الثالث	أبولوينوس الروديسي	٢٩٥	؟ ق.م	٢٤٠ – ٢٣٥ ق.م
الرابع	إيراتوستنيس القورينيائي	٢٧٥	١٩٥ ق.م	٢٣٥ – ١٩٥ ق.م
الخامس	أرسطوفان البيزنطي	٢٥٧	١٨٠ ق.م	١٩٥ – ١٨٠ ق.م
السادس	أبولونيوس أيروجرافوس	؟	؟ ق.م	١٨٠ – ١٦٠ ق.م
السابع	أرسطو خاروس الثاموراثيتي	٢٢٠	١٤٣ ق.م	١٦٠ – ١٤٦ ق.م
؟	حقبة تاريخية مفقودة تقدر بـ ٤٦ عاماً			
الثامن	أونسندر القبرصي	؟ –	؟	١٠٠ – ٨٩ ق.م
؟	حقبة تاريخية مفقودة تمتد من ٨٩ ق.م إلى القرن الميلادي الأول			
التاسع	خيرمون الإسكندري	؟ –	؟	من المرجح أنه تولى أمانة مكتبة الإسكندرية في القرن الميلادي الأول

السنوات المذكورة في هذا الجدول ، سنوات مرجحة في كثير من المصادر ، كما أن ترتيب الأمناء هو أفضل ترتيب منطقي استطاع الباحث التوصل إليه واستنتاجه بعد مراجعة المصادر التي تناولت هذا الموضوع . (انظر قائمة الأعلام تحت الأسماء الواردة في الجدول للتعرف إلى البيانات الزمنية الأخرى المقترحة في المصادر المختلفة).

تعليق على الجدول رقم (٥)

الجدير بالذكر أن عدد أمناء المكتبة الذين استطعنا العثور على أسمائهم وحصرهم (في أكثر من مئة مرجع ومصدر) لم يتعد الأمناء العشرة، وهو عدد جد قليل بالمقارنة مع تاريخ مكتبة الإسكندرية الذي امتد – حسب ما جاء بالمصادر – لفترة زمنية تقدر بحوالي ٦٧٥ عامًا (من ٢٨٤ ق.م إلى ٣٩١م)، وقد كان من المفترض أن تذكر المصادر ما لا يقلّ عن ثلاث وثلاثين أمينًا للمكتبة (بمتوسط

فترة عمل تقدر بـ ٢٠ عاماً لكل منهم). كما أن ذكر هؤلاء الأمناء ارتبط بفترة حكم البطالمة لعرش مصر (٢٨٤-٣٠ق.م)، ويُعد خيرمون الإسكندري، أمين المكتبة الوحيد الذي شذ عن هذه القاعدة، وهو الأمر الذي يثير عدة تساؤلات لدى الباحث : لماذا لم ترد أسماء لأمناء مكتبات تغطي فترة تاريخ المكتبة منذ نهاية القرن الميلادي الأول وحتى سنة ٣٩١ميلادياً (وهو التاريخ المرجح لنهاية مكتبة السيرابيوم وما تبقى من مقتنيات المكتبة الكبرى)؟ وهل يعني هذا أن كيان مكتبة الإسكندرية الكبرى كمؤسسة أكاديمية وثقافية انتهى فعلياً بعد القضاء على حكم البطالمة في مصر؟ أم أن منصب أمين المكتبة ألغي تماماً منذ بداية القرن الميلادي الأول نتيجة لعدم اهتمام الدولة الرومانية المسيحية بالحضارة الهيلينية ورموزها الثقافية الوثنية.

أما بالنسبة للمكتبة الصغرى (السيرابيوم)، فلم يرد بالمصادر ذكر لأي أمين مكتبة تولى مسئوليتها والإشراف عليها، منذ تاريخ إنشائها (في عهد بطليموس الثاني) وحتى نهايتها في فترة حكم الإمبراطور الروماني ثيودوسيوس، وهي فترة تزيد على الست مئة عام. ونفترض في هذا الأمر، أن مكتبة السيرابيوم كانت تتبع إدارياً أمين مكتبة الإسكندرية الكبرى، وتقع تحت إشرافه المباشر، خلال فترة الازدهار الأولى (٢٨٤-٣٠ ق.م)، ولما تدهورت الأحوال، وفقدت المكتبة الكبرى الدعم المادي والمعنوي لأسرة البطالمة بزوال حكمهم، وتزامن ذلك مع الحريق الأول لمكتبة الإسكندرية الكبرى وفقدانها لمعظم مقتنياتها (٤٨ق.م)، انفردت المكتبة الصغرى (السيرابيوم) بإدارة شئونها بنفسها، ويرجح أن من قام بالإشراف عليها وإدارتها كهنة معبد الإله سيرابيس، وهي المؤسسة الأم التي احتضنت المكتبة الصغرى بين جدرانها، ويبدو أن هذه المكتبة (السيرابيوم) لم يرتبط بها أي من مشاهير العلماء. وإلا كان قد ورد ذكره بالمصادر والمراجع التي تناولت سيرتها، ويبدو أيضاً، أنها بالرغم من ثراء مقتنياتها - وهو الأمر الذي يؤكده الكثير من المراجع - إلا أنها لم تؤد الدور الريادي الأكاديمي والثقافي نفسه الذي اشتهرت به المكتبة الكبرى، ومن الواضح أن تدهور الأحوال في أكاديمية الموسيون وهجرة العلماء ورجال الفكر من هذا الصرح، أثر بصورة سلبية على الكيان الأكاديمي والمناخ الثقافي للمكتبات التابعة له (المكتبة الكبرى والصغرى على حد سواء).

نخرج من خلال هذه الرؤية التحليلية بأحد احتمالين:

الفرضية الأولى : أنه بنهاية فترة حكم البطالمة لمصر، وبداية سيطرة الدولة الرومانية المسيحية على مقاليد الأمور في الإسكندرية، انحسر الاهتمام بمكتبتي الإسكندرية (الكبرى والصغرى) لما يمثلانه من رموز ثقافية لحضارة وثنية (الحضارة الهيلينية)، وأدى هذا كله إلى سحب الدعم المادي والمعنوي لهاتين المؤسستين، وكانت من نتائجه عدم الاهتمام بتعيين أمناء للمكتبات يتولون شئونهما، وبالتالي لم يرد بالمصادر ذكر لهؤلاء بعد بداية القرن الميلادي الأول.

الفرضية الثانية: أنه بتقلص الدور الريادي الأكاديمي والثقافي لمكتبة الإسكندرية الكبرى بعد الأحداث التي مرت بها في نهاية القرن الأول قبل الميلادي، وكنتيجة لإهمال الدولة لشئونها (وهذا أيضاً ينسحب على المكتبة الصغرى)، فإن الشخصيات التي كان يتم ترشيحها ومن ثم تعيينها - من قبل الدولة - لتولي أمانة المكتبة، لم تكن بالشخصيات المرموقة، بل كانت مجرد شخصيات عادية لا حظ لهم من الشهرة ولا يتمتعون بمكانة علمية مميزة، فلم تُعرف المكتبة بهم، ولم يُعرفوا بها - على عكس أمناء المكتبة السابقين في عهد حكم البطالمة - وبذا لم تصل أسمائهم لجمهرة المؤرخين والبحاثة الذين تناولوا تاريخ المكتبة، وبالتالي لم تُسجل المصادر شيئاً عنهم، فلم تصلنا - حتى - أسماؤهم.

٤/ معجم الأعلام

ابن العبري، أبو الفرج جريجوري (١٢٢٦-١٢٨٦م)

IBN - AL IBRI BARHEBRAEUS GREGORIOUS

تذكر أيضاً التواريخ (١٢٢٥-١٢٨٦م)

واسمه كاملاً أبو الفرج جريجوري (ويدعى أيضاً: غريغوري، جريجوس، وغريغوس) بن هارون أبو الفرج الملطي النصراني، كني بابن العبري لأن والده كان طبيباً يهودياً قبل أن يتحول إلى المسيحية.

وهو من مؤرخي القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي). اتُّهم بأنه أول من أورد الرواية الملفقة حول حرق المسلمين لمكتبة الإسكندرية القديمة في كتاب له بعنوان «تاريخ الحكماء» (توجد منه نسخة خطية في دار الكتب

بمصر)، ثم ثبت بعد ذلك - حسب ما جاء بالمصادر - أنه نقلها عن القفطي صاحب كتاب «إخبار العلماء بأخبار الحكماء»، وقد جاء في رواية ابن العبري قوله: «كان في ذلك الوقت (وقت فتح الإسكندرية) رجل اشتهر بين المسلمين اسمه حنا الأجرومي، وظاهر من وصفه أنه كان من قسوس القبط، ولكنه خرج من عمله إذ نسب إليه زيغ في عقيدته، وقد أدرك ذلك الرجل فتح العرب للإسكندرية واتصل بعمرو، فلقي عنده حظوة لما توسم فيه من الذكاء بصفاء الذهن وقوة عقله، وعجب مما وجد عنده من غزارة علم، فلما أنس الرجل من عمرو ذلك الإقبال، قال له يومًا: لقد رأيت المدينة كلها وختمت على ما فيها من التحف ولست أطلب إليك شيئًا مما تنتفع به، بل شيئًا لا نفع له عندك وهو عندنا نافع، فقال له عمرو: ماذا تعني بقولك؟ قال: أعني بقولي ما في خزائن الروم من كتب الحكمة، فقال عمرو: إن ذلك الأمر ليس لي أن أقطع فيه رأيًا دون إذن الخليفة. ثم أرسل كتابًا إلى عمر يسأله في الأمر، فأجابه عمر قائلاً: "وأما ما ذكرت من أمر الكتب فإذا كان ما جاء بها يوافق ما جاء في كتاب الله فلا حاجة لنا به، وإذا خالفه فلا أرب لنا فيه، وأحرقها". فلما جاء هذا الكتاب إلى عمرو، أمر بالكتب فوزعت على حمامات الإسكندرية لتوقد بها، فما زالوا يوقدون بها ستة أشهر، فاسمع واعجب».

انظر أيضًا

القفطي

يحيى النحوي

أبو الفداء، إسماعيل بن علي الأيوبي (١٢٧٣-١٣٣١م). ABUL - FIDA

أمير عربي، مؤرخ وجغرافي، ولد بدمشق، وله مؤلفات تاريخية وجغرافية قيمة؛ «المختصر في تاريخ البشر»، «تقويم البلدان». ورد ذكره في المراجع والمصادر التي تناولت حرق مكتبة الإسكندرية القديمة، كأحد المؤرخين العرب المسلمين الذين تناقلوا رواية حرق العرب المسلمين للمكتبة، إبان فتح مصر على يد الصحابي الجليل عمرو بن العاص، ويُعتقدون أنه استقى معلوماته من كتابات القفطي أو ابن العبري.

انظر أيضًا

ابن العبري

القفطي

المقريزي

أبولونيوس أيدجرافوس (؟ - ؟) APOL-LIONIUS EIDOGRAPHER

ويدعى أيضًا: أبولونيوس الأيدوجرافي

أمين مكتبة الإسكندرية القديمة في الفترة ما بين (١٨٠ - ١٦٠ ق.م)، تشير المراجع أنه كان سادس أمين مكتبة يتولى هذه المهمة. (يسبقه في الترتيب أرسطو فانس البيزنطي ويعقبه أرسطو خاروس الثاموريثي).

أبولونيوس الروديسي (٢٩٥ - ؟ ق.م) APOL-LIONIUS OF RHODES

ويدعى أيضًا: أبولونيوس الرودي، وأبولونيوس الرودسي.

عالم مصري ولد بالإسكندرية، ارتحل إلى مدينة رودوس حوالي عام (٢٣٠ ق.م)، بعد أن أنهى عمله بوصفه أمينًا لمكتبة الإسكندرية، واستوطن رودوس، ولقب باسمها، اشتهر بشعره الملحمي، من أهمها ملحمة خالدة تدعى «الأجنوت»، اندثرت آثارها، ولم تصل إلينا. تولى أمانة مكتبة الإسكندرية في الفترة ما بين الأعوام (٢٤٠-٢٣٥ق.م)، وتذكر أيضًا السنوات (٢٤٠-٢٣٠ ق.م) و (٢٦٠ - ٢٤٦ ق.م) يحتل الترتيب الثالث في قائمة أمناء مكتبة الإسكندرية القديمة (يسبقه في الترتيب كاليماخوس، ويعقبه إيراتو سثينس).

أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م) ARISTOTLE

يدعى أيضًا: أرسطوتالس ، وأرسطوطالس.

فيلسوف يوناني، تتلمذ على يد أفلاطون، كان معلمًا للإسكندر الأكبر، ويعد واحدًا من أعظم فلاسفة عصره، أسس مدرسة اللوقيوم LYCEUM (وتدعى أيضًا: اللوكيوم، واللوسيوم) الأثينية الشهيرة، ومؤسس مكتبتها التي قُرنت باسمه، نسب إليه - في بعض الروايات الضعيفة - فكرة إنشاء مكتبة الإسكندرية القديمة، حيث ادعى بعض المؤرخين أنه أوصى بها إلى بطليموس الأول

(سوتر)، إلا أن غالبية العلماء والباحثين لم يأخذوا بهذه الرواية بل وأثبتوا خطأها مؤكدين أن أرسطو لم ير قط مدينة الإسكندرية ناهيك عن مكتبتها، ويرجحون أن ذيوع هذا الادعاء كان بسبب تواتر الروايات حول شراء مكتبة أرسطو وضمها إلى مقتنيات مكتبة الإسكندرية القديمة، ومن هنا حصل اللبس الذي أدى إلى انتشار هذه الرواية.

[راجع تواريخ وفاة الفيلسوف أرسطو (٣٢٢ ق.م)، والتاريخ المرجع لبداية فكرة إنشاء مكتبة الإسكندرية القديمة (٢٨٥ ق.م)].

انظر أيضًا:

الإسكندر الأكبر

بطليموس الأول

بطليموس الثاني

أرسطو فانس البيزنطي (٢٥٧ - ١٨٠ ق.م)

ARISTOPHANEsS OF BEZANTIUM

ويدعى أيضًا: أرسطو فان البيزنطي

عالم يوناني يُعد من أشهر اللغويين في العصور الكلاسيكية القديمة، كما يُعد من أعظم فقهاء اللغة الذين ابتكروا تقاليد في عالم نقد النصوص وتحقيقها من أعظم إنجازاته إصلاحه لنظام التنقيط والشولات والتمييز بين الوقفات المختلفة في المخطوطات لتسهيل القراءة وتوضيح النص، أعد نسخًا منقحة لمؤلفات الكُتاب الكلاسيكيين وألف معجمًا أدبيًا.

تولى أمانة مكتبة الإسكندرية ما بين الأعوام (١٩٥-١٨٠ ق.م)، وتُذكر أيضًا الأعوام (١٩٧-١٨٠ ق.م). يحتل الترتيب الخامس في قائمة أمناء مكتبة الإسكندرية القديمة (يسبقه في الترتيب أيراتوستينس، ويعقبه أبولونيوس الأيدوجرافي).

أريستارخوس الثاموثريسي (٢٢٠ -١٤٣ق.م)

ARISTARCHUS OF SAMOTHRACA

وتُذكر أيضًا التواريخ (٢٠٠ - ١٤٣ ق.م)

ويدعى أيضًا: أريستارخوس الساموترافي، وأريستارخوس الساموتراقي، وأرستارخوس الصاموتراسي.

ناقد أدبي ونحوي، كتب عددًا كبيرًا من التحقيقات والشروح وألف عدة دراسات نقدية، وكان من النحاة الرواد، ويُعده الكثير من المؤرخين المبتكر الحقيقي لعلم النحو، إذ ميز ما بين أنواع الكلم من اسم وفعل وصفة واسمي فاعل ومفعول وضمير، وعلامة التعريف وحروف الجر والعطف.

تولى أمانة مكتبة الإسكندرية القديمة ما بين الأعوام (١٦٠ - ١٤٦ ق.م)، وتذكر أيضًا الأعوام (١٦٠-١٤٥ق.م). ويجيء في المركز السابع من قائمة أمناء مكتبة الإسكندرية (يسبقه في الترتيب أبولونيوس الأيدوجرافي، أما خلفه المباشر فغير محدد بالمصادر، وإن كانت المراجع تشير إلى تولي أونسندر القبرصي، وخيرمون الإسكندري أمانة مكتبة الإسكندرية من بعده).

الإسكندر الأكبر (٣٥٦-٣٢٣ق.م)

ALEXANDER THE GREAT

ويدعى أيضًا: الإسكندر المقدوني

ملك مقدونيا (٣٣٦ - ٣٢٣ ق.م)، يُعد أحد عباقرة الحرب في كل العصور، فتح مصر عام (٣٣٢ ق.م)، أسس مدينة الإسكندرية وجعلها عاصمة البلاد، وهي ذات المدينة التي أنشئت فيها - فيما بعد - مكتبة الإسكندرية القديمة. نسب إليه قلة قليلة من المؤرخين - في رواية ضعيفة - فكرة وإنشاء مكتبة الإسكندرية القديمة، وأطلقوا عليها «مكتبة الإسكندر»، إلا أن هذه الرواية لم تلق قبولاً ولا تأييدًا من جمهور العلماء والباحثين، نظرًا لمخالفتها الواضحة لجميع المعطيات التاريخية لذلك العصر، [راجع تاريخ وفاة الإسكندر الأكبر (٣٢٣ ق.م)، والتاريخ المرجع لبناء مكتبة الإسكندرية القديمة ٢٨٥ ق.م].

انظر أيضًا:

أرسطو

أورليان (٢١٥ - ٢٧٥ م) AURLIAN

يدعى أيضًا: أورليانوس

إمبراطور روماني (٢٧٠ - ٢٧٥ م). ارتبط اسمه بتدمير وحرق أكاديمية الإسكندرية (الموسيون) ومكتبتها الشهيرة. وتقول روايات المؤرخين، إنه عندما أتى بجنوده لقمع ثورة الإسكندرية عام ٢٧٣م، قام بحرق جزء كبير من

المدينة وقد حظي حي البروكيوم الملكي بنصيب وافر من هذا التدمير، وكان من الطبيعي أن يمتد التخريب ليشمل أكاديمية الموسيون ومكتبتها، الواقعة في موضع القلب من هذه الضاحية.

إيراتوستينس القوريني (٢٧٥ – ١٩٥ ق.م)

ERATOSTHENES OF CYRENE

وتُذكر أيضًا التواريخ (٢٧٦ – ١٩٤ ق.م)، (٢٧٦-١٩٦ ق.م)

ويدعى أيضًا: أيراتوستينس القوريني، وأيراتوسثينز القوريني، وإراتوستينس البرقاوي. عالم رياضي وجغرافي وفلكي يوناني، ولد في قورينة CYRENE درس في الإسكندرية علي يد كاليماخوس، ولوسانياس، ثم تابع دراسته في أثينا حوالي عام ٢٤٦ ق.م. استدعاه بطليموس الثالث ليخلف أبولونيوس الروديسي في منصب أمين مكتبة الإسكندرية القديمة (٢٣٠ – ١٩٦ ق.م)، وتذكر أيضًا الأعوام (٢٣٥ – ١٩٥ ق م) و (٢٣٥ – ١٩٢ ق م). وكانت سعة اطلاعه وعلمه وتبحره في مختلف العلوم مضرب الأمثال في عصره. كان أول من حسب محيط الأرض بين الإسكندرية وأسوان، ونشر أطلسًا جديدًا للبلدان، واقترح ما يسمى بـ «غربال البراتوسنيس» لمعرفة الأعداد الأساسية، ولم يكن رياضياً وجغرافياً فحسب، بل كان ضليعًا في التاريخ وعلم اللغة، ووضع دراسة وافية من الدراما الأتيكية، وترتيب الحوادث الإغريقية القديمة في مؤلف له معروف باسم «كرنولوجسيا» يقول الباحثون إنه أطول أمناء مكتبة الإسكندرية عمرًا وشهرة، واستمر في أمانة مكتبة الإسكندرية ما يربو على الأربعين عامًا (٤٣ عامًا حسب تقدير بعض المؤرخين)، ويُعد رابع أمين مكتبة تولى أمانة مكتبة الإسكندرية (سبقه في الترتيب أبولونيوس الروديسي، ويعقبه أرسطوفانس البيزنطي).

أونسندر القبرصي

ONESANDER OF CYPRUS

ويدعى أيضًا أونسند القبرصي

تشير المصادر إلى أنه تولى أمانة مكتبة الإسكندرية القديمة خلال الأعوام (١٠٠ – ٨٩ ق م) تسبقه حقبة تاريخية مفقودة في تاريخ مكتبة الإسكندرية تقدر بـ ٤٦ عامًا، وتعقبه حقبة مماثلة حتى بداية القرن الميلادي الأول: وتشير المصادر إلى أن أرسطو خاروس الثامورثيتي، يُعد آخر أمناء المكتبة المعروفين، (١٦٠ – ١٤٦م)، قبل تولي أونسندر القبرصي هذه المهمة، كما أن خيرمون الإسكندري، يعد أول أمناء المكتبة الذي أُمكن التعرف إليهم عقب انتهاء فترة أونسندر القبرصي بسنوات عديدة.

بطليموس الأول (سوتر) (٣٦٧ – ٢٨٣ ق م)

PTOLOMY I (SOTER)

ويدعى أيضًا بطلوماوس الأول، وبطلميوس الأول، سوتير.

ملك مصر (٣٢٣ – ٢٨٥ ق م)، ومؤسس دولة البطالمة (البطالسة، أو البلاطمة) في مصر، وهي الدولة التي استمرت حتى الفتح الروماني (٣٠ ق م). كان أحد قواد الإسكندر الأكبر، وبعد وفاة الإسكندر (٣٢٣ ق م)، تقاسم قواده إمبراطوريته الشاسعة، وأصبحت مصر في بلاد الشام الجنوبية من نصيب بطليموس الأول، الذي لُقب «بسوتر»، وتعني «المنقذ» باللغة اليونانية. يجمع الجانب الأعظم من المؤرخين على أنه مؤسس أكاديمية الإسكندرية (الموسيون) MOUSEION ، في ضاحية بركيوم (بروخيوم، بروكيون) BRUCHEIUM (BROCHEON) الملكية بمدينة الإسكندرية، والتي ضمت بين جدرانها مكتبة الإسكندرية القديمة، وكان ذلك – بناء على رأي المؤرخين – بتوصية من السياسي العالم ديمتريوس الفاليري حوالي عام ٢٨٤ ق.م، وقد قام بطليموس الأول برعاية المكتبة ودعمها مادياً ومعنوياً حتى وفاته، حيث تولى ابنه بطليموس الثاني هذه المهمة من بعده.

انظر أيضًا:

بطليموس الثاني

ديمتريوس الفاليري.

بطليموس الثاني (فيلادلفوس)

PTOLOMY II (PHILADELPHOS) (٣٠٨ –٢٤٦ ق م)

ويدعى أيضًا: بطلوماوس الثاني، بطلميوس الثاني، فلاذلفوسي، وفيلادلف.

ابن بطليموس الأول، أشركه أبوه معه في حكم مصر (٢٨٥ ق م) حتى انفرد به بعد وفاة أبيه (٢٩٣ق م). جعل من الإسكندرية مركزًا للثقافة الإغريقية (الهيلينية، الهلينسية). ويعزى إليه – خطأ – الفضل في إنشاء مكتبة الإسكندرية بناء على توصية تقدم له بها ديمتريوس الفاليري، إلا أن غالبية العلماء يرون أنها رواية ضعيفة، ولا يأخذون بها، وإن اتفق معظمهم على أنه تابع سياسة أبيه في المحافظة على النهضة الثقافية والعلمية للبلاد، وأن مكتبة الإسكندرية القديمة بلغت في عهده أوج عظمتها، ويقال في رواية متفق عليها أنه مؤسس مكتبة السيرابيوم SERAPIUM ، التي تدعى أيضًا: المكتبة الصغرى، أو الابنة أو الوليدة، التي أُنشئت ضمن ملحقات معبد الإله سيرابيس SERAPIS في حي راقوده RHAK-OTIS الشعبي بمدينة الإسكندرية، وينسب إلى بطليموس الثاني شراؤه لمجموعة مؤلفات الفيلسوف أرسطو (مقتنيات مكتبة أرسطو، مكتبة مدرسة اللوقيوم) وإضافتها إلى مكتبة الإسكندرية القديمة.

انظر أيضًا:

بطليموس الأول

ديمتريوس الفاليري

بطليموس الثالث (يورحيتس)

(٢٨٢ – ٢٢١ق م) PTOLOMY III (EUERGETES)

يدعى أيضًا: بطلوماوس الثالث، بطلميوس الثالث، ويورجيتوس الأول.

ابن بطليموس الثاني، خلف أبوه على عرش مصر (٢٤٦ – ٢٢١ ق م)، سار على نهج أبيه وجده في دعم أكاديمية الإسكندرية ومساندتها، كما اهتم بتطوير مكتبتها الشهيرة، يُرجع إليه – برواية ضعيفة – الفضل في إنشاء مكتبة السيرابيوم (المكتبة الابنة) عام ٢٣٥ ق م، ولكن الكثير من العلماء نبذوا هذا الادعاء نظرًا لضعف الأسانيد التاريخية التي تدعمها

انظر أيضًا:

بطليموس الثاني

البغدادي، موفق الدين عبداللطيف

(١١٦٢– ١٢٣١م) AL BAGHDADI

طبيب ومؤرخ عربي من بغداد، عُرف بسعة علمه. ولد ببغداد، ودرس الطب والفلسفة، واشتغل بتدريسها حينًا بالشام. ارتحل إلى مصر لطلب العلم. يشار إليه في المصادر كأول من أورد الخبر الملفق عن حرق المسلمين لمكتبة الإسكندرية القديمة في كتابه «الإفادة والاعتبار» الذي ألفه عام ١٢٢٦م، وأورد فيه وصفًا لمصر في أواخر القرن الثاني الميلادي، حيث ذكر فيه عبارته الشهيرة: «وفيها (أي أكاديمية الإسكندرية) خزانة الكتب التي أحرقها عمرو بن العاص بإذن من عمر – رضي الله عنه –».

تلك العبارة غير المستندة على مصدر علمي تاريخي موثوق به، فتحت بابًا واسعًا للأقاويل والشائعات والروايات الملفقة عن حرق العرب المسلمين لمكتبة الإسكندرية القديمة، مما زوّد المعادين للديانة الإسلامية بمادة خصبة يشهرون بها بالرموز الحضارية العربية والإسلامية، وقد استنفدت حملة الرد على هذه الرواية ودحضها جهد الكثير من العلماء المسلمين العرب، والمستشرقين المتصفين بالإنصاف والبحث عن الحقيقة.

انظر أيضًا:

ابن العبري

القفطي

تيوفيلوس (؟ – ؟) THEOPHILUS

ويدعى أيضًا: تيوفيلوس الأنطاكي THEOPHILUS D ANTIOCHE

وتيوفيلوس الإسكندري THEOPHILUS OF ALEXANDRIA

أسقف مسيحي (بطريارك مدينة الإسكندرية)، عاش في حوالي القرن الرابع الميلادي، قاد حملة ضد رموز الوثنية. تفيد الروايات بأنه هو الذي أوعز إلى الإمبراطور الروماني ثيودوسيوس لإصدار أمر تدمير معبد الإله سيرابيس SERAPIS الواقع في حي الراقودة الوطني بمدينة الإسكندرية، وقد قام بالإشراف بنفسه على تنفيذ

هذا الأمر، ودمر المعبد وملحقاته بما في ذلك مكتبة السيرابيوم (المكتبة الابنة) عام ٣٩١م.

انظر أيضًا:

أورليان

ثيودوسيوس الأول

جيوفان

تيودوسيوس الأول (الكبير) (٣٤٦ - ٣٩٥م)
THEODOSIUS I (THE GREAT)

يدعى أيضًا: تيودوسيوس، وطيودوسيوس، دقليدانوس.

إمبراطور روماني انتخب ليحكم الشرق بصفة أغسطس سادك (٣٨٩-٣٩٥م)، يعزى إليه المؤرخون إصداره الأمر بهدم معبد الإله سيرابيس بحي راقودة RHAKOTIS بالإسكندرية وملحقاته بما فيها مكتبة السيرابيوم (المكتبة الابنة)، وذلك - حسب قول المؤرخين - بإيعاز من البطريق السكندري تيوفيلوس عام ٣٩١م.

انظر أيضًا:

أورليان

تيوفيلوس الأنطاكي

جوفيان

جوفيان (٣٣١ - ٣٦٤م) JOVIANUS

ذكرت أيضًا التواريخ (٣٣١- ٣٦٣م)

يدعي أيضًا جوفيانوس. قائد حربي وإمبراطور روماني (٣٦٣ - ٣٦٤م)، ناصر المسيحية ودعم مسيرتها، ورد ذكره بالمصادر في روايات تخريب مكتبة السيرابيوم (الابنة) وتدميرها، عام ٣٦٣م، ويُذكر أيضًا عام ٣٦٤م، حيث أمر جنوده - على حد قول المؤرخين - بتدمير معبد الإله سيرابيس وملحقاته بما فيها المكتبة الابنة، وذلك بحجة القضاء على رموز الوثنية بمدينة الإسكندرية.

انظر أيضًا:

أورليان

تيوفيلوس

ثيودوسيرس

خيرمون السكندري (؟ - ؟) CHAIEREMON OF ALEXANDRIA

ويدعى أيضًا كيرمون الإسكندري.

فيلسوف وعالم وكاتب مصري من الإسكندرية، عاش في القرن الأول الميلادي (لم تحدد المصادر السنوات)، ذهب إلى روما عام ٤٩م، ليكون معلمًا لنيرون، كتب في الفلك والديانات والنحو والتاريخ، من المرجح أنه تولى أمانة مكتبة الإسكندرية بعد عهد البطالمة خلال الفترة ما بين عام ٣٠ ق م وعام ٤٩ م قبل سفره إلى روما، وهو آخر من ذُكر بوصفه أمينًا لمكتبة الإسكندرية.

ديمتريوس الفاليري (٣٣٧ - ٢٨٢ ق م)
DEMETREIUS PHALIROS (PHALERUM)

وتذكر أيضًا التواريخ (٣٥٠ - ٢٨٢ ق م)

يدعى أيضًا: ديمتريوس فليري، ديمتريوس فاليروس، ديمتريوس الفاليري، أما العرب فيدعونه أحيانًا إلياس الأثيني، وأخرى ابن مرة وثالثة زميرة.

عالم وسياسي أثيني من تلامذة أرسطو، كان حاكمًا مطلقًا لأثينا (٣١٧ - ٣٠٧ ق م)، لجأ إلى مصر عام ٢٩٥ق م بعد اضطراب الأحوال السياسية في بلاد اليونان، أكرمه بطليموس الأول وعينه مستشارًا له. يُعزى إليه - في أكثر الروايات شيوعًا وقبولاً لدى العلماء - الفضل في اقتراح فكرة إنشاء أكاديمية الإسكندرية (المسيون)، وعرضها على بطليموس الأول، وكنتيجة لذلك، عهد إليه بإنشاء معهد الموسيون، الذي ضم مكتبة الإسكندرية القديمة، ويقال إنه ترك مصر مغضوبًا عليه، بعد ارتقاء بطليموس الثاني عرش مصر، حيث توفي منفيًا عام (٢٨٢ ق م).

هناك رواية أخرى - ضعيفة الأسانيد - تُفيد بأنه أوصى بفكرة إنشاء مكتبة الإسكندرية القديمة إلى بطليموس الثاني، إلا أن هذه الرواية لا تلقى قبولاً لدى غالبية العلماء، ويستندون في رفضهم لها على واقعة الخلاف التي حدثت بين ديمتريوس الفاليري وبطليموس الثاني قبل توليه عرش مصر، وذلك بسبب نُصح ديمتريوس الفاليري لبطليموس الأول بعدم تعيين ابنه بطليموس الثاني

خليفة له على العرش لعدم صلاحيته للحكم، ويقال إن بطليموس الثاني أضمر له الضغينة، وانتقم منه بنفيه خارج البلاد حال وصوله إلى العرش.

انظر أيضاً:

بطليموس الأول

بطليموس الثاني

زينودوتسي (؟ – ؟) ZENODOTUS OF EPHSUS

ويدعى أيضاً: زينودوتسي الأفسسي، زينودوتسي الأفوسي.

أديب وناقد لامع لأشعار الشعراء اليونانيين البارزين من أمثال هوميروس HOMER ويعزى إليه الفضل في دراسة وتحقيق ملحمتي هوميروس (هومر، هومير) الخالدتين "الإلياذه"، و "الأوديسة"، عكف على جمع مخطوطاتها وتحقيق لغتهما وتبويبهما وفهرستهما، كما وضع ثبتاً بأهم الكلمات الهوميرية وتفسيرها. تتفق المراجع التاريخية على أنه أول من تولى أمانة مكتبة الإسكندرية في الفترة ما بين (٢٨٤ – ٢٦٠ ق م) وتذكر أيضاً السنوات (٢٨٢ – ٢٦٠ ق م)، وخلفه فيها حسب معظم الروايات – وإن كان هناك من يخالفها – العالم المكتبي كاليماخوس.

عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – (٥٨٦–٦٤٤م) OMAR IBN AL KHATTAB

من كبار الصحابة، وثاني الخلفاء الراشدين (٦٣٤ – ٦٤٤م)، لقبه رسول الله ﷺ بالفاروق. أرسل في خلافته جيشاً عربياً بقيادة الصحابي الجليل عمرو بن العاص – رضي الله عنه – لفتح مصر (٦٤٠ – ٦٤٢م)، وكتب للجيش المسلم النصر بإذن الله، وحاصر مدينة الإسكندرية مدة أحد عشر شهراً، ودخلوها فاتحين بعون الله، بعد عقد معاهدة صلح مع المقوقس. اتُّهم زوراً وبهتاناً في رواية ملفقة، بإصداره أمراً إلى قائد جيشه عمرو بن العاص (رضي الله عنه)، بالتقدم لإحراق خزانة الكتب بالإسكندرية (مكتبة الإسكندرية القديمة)، وقد ورد ذكر هذه الرواية في بعض المصادر التي تتحدث عن تاريخ المكتبة، وأول من ذكرها في عبارة ملفقة كان "عبداللطيف البغدادي"، ثم أعقبه في ذكرها "القفطي" في رواية طويلة منمقة مُحكمة الحبكة، وتلاهما ابن العبري، ناقلاً عن القفطي، ومن بعدهم انتشرت تلك الرواية بين سائر المؤرخين والكتاب اللاحقين (وقد أوردنا نص هذه الرواية – التي كذبها جُل العلماء – كاملة في هذا العمل).

انظر :

ابن العبري

البغدادي

عمرو بن العاص – رضي الله عنه – (٥٩٤ – ٦٦٣م) IBN - AL - AS , OMRO

صحابي جليل، وقائد عسكري عبقري. أذن له ثاني الخلفاء الراشدين (الفاروق) عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) في فتح مصر (٦٤٠ – ٦٤٢م)، حاصر مدينة الإسكندرية أحد عشر شهراً، ثم فتحها الله على يديه بعد استسلام "المقوقس" وعقد صلحه مع العرب على أن يسلم لهم الإسكندرية. اتهم زوراً في رواية ملفقة بأنه قائد الجيش العربي الإسلامي الذي فتح مدينة الإسكندرية وقام بحرق مكتبتها الكبرى بأمر من خليفة المسلمين عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، وقد أوردنا نص هذه الرواية – المختلقة – كاملة في هذا العمل.

انظر :

ابن العبري

البغدادي

عمر بن الخطاب

القفطي

القفطي، جمال الدين أبو الحسن (١١٧٢ – ١٢٤٨م) AL QAFTI , GAMAL ALDIN

اسمه كاملاً: جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف بن إبراهيم عبدالواحد بن موسى بن أحمد الشيباني القفطي. يعرف "بالقاضي الأكرم" يُذكر في المراجع باسم: جمال الدين القفطي، ويرد في البعض الآخر باسم: أبو الحسن علي القفطي.

أديب ومؤرخ مصري، ولد بقفط بمحافظة قنا، درس بالقاهرة والإسكندرية، ألف العديد من الكتب

منها «تراجم العلماء»، «إنباه الرواة على أنباء النحاة»، وغيرها. من أشهر أعماله «إخبار العلماء بأخبار الحكماء»، نُسب إليه كتابة أول رواية ملفقة حول حرق مكتبة الإسكندرية القديمة على يد عمرو بن العاص، بأمر من خليفة المسلمين عمر بن الخطاب (رضي الله عنهما). الجدير بالذكر أن هذه الرواية وردت في المصادر المختلفة بصياغات عدة، وقد تخيرنا الصياغة التي وردت بقلم الأستاذ خليل الطوال – نقلاً عن القفطي من كتابه «إخبار العلماء بأخبار الحكماء» – التي نشرت بمقال له بمجلة الرسالة عام ١٩٣٨م (راجع قائمة المراجع)، وقد كان نصها كالآتي:

«وعاش (يحيى النحوي) إلى أن فتح عمرو بن العاص مصر والإسكندرية، ودخل على عمرو وقد عرف موضعه من العلم واعتقاده وما جرى له مع النصارى، فأكرمه عمرو ورأى له موضعًا وسمع كلامه في إبطال التثليث فأعجبه، وسمع كلامه أيضًا في انقضاء الدهر ففتن به وشاهد من حججه المنطقية وسمع من ألفاظه الفلسفية التي لم يكن للعرب بها انسه ما هاله. وكان عمرو عاقلاً حسن الاستماع صحيح الفكر فلازمه وكاد لا يفارقه، ثم قال له يحيى يومًا: "إنك قد أحطت بحواصل الإسكندرية وختمت على كل الأجناس الموصوفة الموجودة بها، فأما مالك به انتفاع فلا أعارضك فيه، وأما مالا نفع لكم منه فنحن أولي به، فأمر بالإفراج عنه" فقال عمرو: "وما الذي تحتاج إليه؟" قال: كتب الحكمة في الخزائن الملوكية، وقد أوقعت الحوطه عليها، ونحن محتاجون إليها، ولا نفع لكم بها. فقال له: "ومن جمع هذه الكتب، وما قصتها؟" فقال يحيى: "إن بطلوماوس فيلاذلفوس من ملوك الإسكندرية لما ملك حبب إليه العلم والعلماء وفحص عن كتب العلم وأمر بجمعها وأفرد لها خزائن فجمعت وولي أمرها رجلاً يدعى بابن مرة (زميرة) وتقدم إليه بالاجتهاد في جمعها واجتمع له من ذلك في مدة خمسين ألف كتاب ومئة وعشرين كتابًا.

ولما علم الملك باجتماعها وتحقق عدتها قال لزميرة، أترى بقي في الأرض من كتب العلم مالم يكن عندنا؟ فقال له زميرة: "قد بقي في الدنيا شيء في السند والهند وفارس وجرجان والأرمان وبابل والموصل وعند الروم فحجب الملك من ذلك وقال: دم على التحصيل. فلم يزل علي ذلك إلى أن مات، وهذه الكتب لم تزل محروسة محفوظة يراعيها كل من يلي الأمر من الملوك وأتباعهم إلى وقتنا هذا". فاستكثر عمرو ما ذكره يحيى وعجب منه وقال له: "لا يمكنني أن آمر بأمر إلا بعد استئذان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب". وكتب إلى عمر وعرفه بقول يحيى الذي ذكر واستأذنه ما الذي يصنعه فيها فورد عليه كتاب عمر يقول فيه: "وأما الكتب التي ذكرتها فإن كان فيها ما يوافق كتاب الله ففي كتاب الله عنه غنى، وإن كان فيها ما يخالف كتاب الله تعالى فلا حاجة إليها فتقدم بإعدامها" فشرع عمرو بن العاص في تفريقها على حمامات الإسكندرية وأحرقها في مواقدها وذكرت عدة الحمامات يومئذ وأنسيتها، فذكروا أنها استغرقت في مدة ستة أشهر فاسمع ما جرى وأعجب».

هذه هي الرواية التي رواها القفطي ونقلها عنه أبو الفرج، فتداولتها الألسن، وروّج لها الشعوبيون على أنها حقيقة واقعة، مع ما فيها من مغالطات فندها – فيما بعد العلماء.

انظر أيضًا:

ابن العبري

أبو الفداء

المقريزي

كاليماخوس (٣٠٥ – ٢٤٠ق م) CALLIMACHUS

تُذكر أيضًا التواريخ (٣١٠ – ٢٣٠ ق م)

يدعى أيضًا: كاليماخس، كاليمارخوس، كاليماخوس البرقاوي، كاليماكوس، قليماقوس.

ولد في برقة وهاجر منها في مستهل حياته إلى الإسكندرية، وتلقى تعليمه في مدرسة

الفلسفة «اللوقيوم» التي أنشأها أرسطو في أثينا. بدأ حياته العملية معلمًا في ضاحية اليوسيس (تدعى أيضًا: اليوزيس ELEUSIS) بالإسكندرية. ألف مقطوعات شعرية رائعة، لعلها هي التي لفتت نظر البلاط الملكي البطلمي إليه، فعينه بطليموس الثاني في مكتبة الإسكندرية في الفترة ما بين ٢٦٠ – ٢٤٠ ق م، وقد كان مسئولاً عن أعمال الفهرسة فيها، حيث قام بعمل فهرسه العام المعروف باسم البيناكس PINAKES ، الذي يُعد أول عمل ببليوجرافي منظم في التاريخ، ولذا يحلو لبعض المؤرخين أن يلقبوه بأبي الببليوجرافيا، وقد استطاع – بهذا العمل – أن يخلد اسمه في تاريخ المكتبات كأول من قام بعمل ببليوجرافي منظم موضوع على أسس علمية سليمة (وإن لم يصلنا منه شيء سوى الكتابات عنه)، وبالرغم من أن بعض المراجع تؤكد أنه لم يتول أمانة مكتبة الإسكندرية القديمة، إلا أن الكثير من المراجع تشير إليه كثاني أمين للمكتبة حيث تولى مسئوليتها بعد سلفه زينودوتس، وكان ذلك ما بين الأعوام ٢٦٠ – ٢٤٠ ق م، وقد خلفه في أمانتها أبولونيوس الروديسي.

كليو باترا السابعة (٦٩ – ٣٠ ق م)

CLEOPATRA V II

ملكة مصر (٥١ – ٤٩ ق م) و (٤٨ – ٣٠ ق م). مصرية المولد يونانية الأصل، من سلالة أسرة البطالمة (البطالسة، البلاطمة). يذكر المؤرخون – في أكثر الروايات زيوعًا وقبولاً – أن احتراق مكتبة الإسكندرية الكبرى (للمرة الأولى) تم في فترة حكمها لمصر، على يد جنود يوليوس قيصر (٤٨ ق م) وفي رواية أخرى (٤٧ ق م) في حادثة الأسطول البحري بميناء الإسكندرية، كما يشاع أن مارك أنطونيو القائد العسكري اليوناني قام بإهدائها مئتي ألف مجلد من مكتبة برجاموس PERGAMOUS (ويطلق عليها أيضًا: برجامون PERGAMOUN ، وبرجاموم PERGAMOUM)، على سبيل التعويض عن مقتنيات مكتبة الإسكندرية المحترقة (قُدر التعويض بحوالي ٤٠٠٠٠٠ مجلد)، ولكن من غير المعروف فيما إذا كانت هذه الكتب نُقلت كلها – بالفعل – إلى مكتبة الإسكندرية الكبرى، أم حفظت في حجرات خاصة بالقصر الملكي بضاحية البروكيوم، أم تم حفظها بمكتبة السيرابيوم (المكتبة الابنة) الملحقة بمعبد الإله سيرابيس في حيّ «راقودة» الوطني بالإسكندرية، وهناك بعض الشبهات حول واقعة الإهداء هذه، مما حدا ببعض المؤرخين بعدم الأخذ بها.

انظر أيضًا:

مارك أنطونيو

يوليوس قيصر

مارك أنطونيو (٨٢ – ٣٠ ق م) , ANTONY MARK (OR) MARC

ويدعى أيضًا: ماركوس أنطونيوس , ANTONIUS MARCUS

قائد عسكري وسياسي روماني، ارتبط اسمه بمكتبة الإسكندرية القديمة عن طريق رواية تناقلها المؤرخون، تفيد بأنه حاول تعويض كليوباترا السابعة ملكة مصر، – الذي كان على علاقة حميمة بها – عن الخسارة التي منيت بها مكتبة الإسكندرية الكبرى في حادثة حرق الأسطول البحري في ميناء الإسكندرية على يد جنود يوليوس قيصر، وذلك عن طريق إهدائها مجموعة مهمة من المجلدات قُدرت بـ ٤٠٠٠٠٠ مجلد (وقُدرت في روايات أخرى بـ ٢٠٠٠٠٠ مجلد)، استجلبها من مكتبة برجاموس (برجاموم، برجاسون) اليونانية، ويبدو أن عددًا من الباحثين والعلماء لم يأخذوا بهذه الرواية، نظرًا للغموض الذي أحاط بمصير هذا الكم الهائل من الكتب وعدم تمكن الباحثين من التوصل إلى معلومات مؤكدة عن صحة هذه الواقعة والتثبت من وقوعها.

انظر أيضًا:

كليو باترا

يوليوس قيصر.

المقريزي، تاج الدين أحمد بن علي (١٣٦٤ - ١٤٤٢م)

AL MAQRIZI , TAG AL DIN AHMED IBN ALI

مؤرخ مصري، ولد بالقاهرة ودرس فيها، تقلب في عدة مناصب عامة ثم تفرغ للدرس والاشتغال بالعلم (حوالي ١٤١٨م)، له مؤلفات مهمة وكثيرة. ورد ذكره في المصادر التي تناولت تاريخ مكتبة الإسكندرية القديمة، كأحد أهم المؤرخين المسلمين العرب الذين تناقلوا رواية حرق مكتبة الإسكندرية الكبرى على يد العرب المسلمين - إبان فتح العرب لمصر بقيادة عمرو بن العاص في عهد خليفة المسلمين عمر بن الخطاب - رضي الله عنهما - ويرجح المؤرخون أنه نقلها عن كتابات القفطي أو ابن العبري، وقد ذكر ذلك في كتابه «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» عام ١٤٠٠م.

انظر أيضًا:

ابن العبري

أبو الفداء

القفطي

يحيى النحوي (؟ - ؟)

JOHM PHILOPONUS

ويدعى أيضًا: حنا الأجرومي، يوحنا فيلوبونس، وغرسا طيقوس (أي النحوي).

مصري - إسكندري، تتلمذ علي يد شاواري، وتقلد منصب أسقف في كنيسة الإسكندرية، يعقوبي المذهب يعتقد في التثليث، ثم رجع عن نصرانيته - تألب عليه أساقفة مصر، فخلعوه بعد أن فشلوا في إقناعه بالرجوع عن رأيه. يُعد أحد الشخصيات الرئيسة في الرواية التي حيكت حول حريق مكتبة الإسكندرية الكبرى التي زعم ملفقها أن المكتبة أُحرقت على يد عمرو بن العاص بأمر من خليفة المسلمين عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، وقد أثبتت الدراسات التي قام بها الباحثون، أن يحيى النحوي قد توفي قبل الفتح الإسلامي لمصر بمدة لا تقل عن عشرين عامًا، ولو كان على قيد الحياة أثناء دخول عمرو بن العاص مصر لكان عمره لا يقل عن مئة وعشرين عامًا.

انظر أيضًا:

ابن العبري

عمر بن الخطاب

عمرو بن العاص

القفطي

يوليوس قيصر (١٠٠ - ٤٤ ق م)

JULIUS C.

اسمه الحقيقي غايوس يوليس GAIUS JULIUS

قائد عسكري وسياسي روماني، اشتهر بفتوحاته وعبقريته العسكرية، عُين دكتاتورًا على روما (٤٩ - ٤٤ ق م)، قُتل في عقر دار مجلس الشيوخ الروماني. ارتبط اسمه بقوة بتدمير مكتبة الإسكندرية القديمة، حيث أشار كثير من المؤرخين إلى أن المكتبة الكبرى أحرقت على يد جنوده عام ٤٨ ق م، ويقال ٤٧ ق م، في حادث حرق الأسطول البحري في ميناء الإسكندرية، وقد كتب الأديب اليوناني أميانوس مرسلينوس في ذلك قائلاً: «كانت مكتبة الإسكندرية لا تقوّم بثمن، واتفق الكتاب الأقدمون على أنها كانت تحوي سبعمائة ألف كتاب، بذل في جمعها البطالمة جهدًا كبيرًا، ولقوا في سبيل ذلك عناء عظيمًا، وقد أحرقتها النيران في حرب الإسكندرية عندما غزاها قيصر وخربها».

تُعد رواية حرق جنود يوليوس قيصر لمكتبة الإسكندرية القديمة - عن طريق الخطأ أو غيره أثناء قيامهم بحرق الأسطول الرابض في ميناء الإسكندرية في إطار خطة دفاعية وضعها يوليوس قيصر لحماية قواته - من أكثر الروايات ذيوعًا وانتشارًا، ويرى الباحثون أنها الرواية الأكثر صحة ومصداقية من جملة الروايات التي قيلت عن نهاية المكتبة، لما فيها من منطقية وتوافق مع الأحداث والدلائل التاريخية.

انظر أيضًا:

كليو باترا

مارك أنطونيو

قائمة المراجع العربية

أولاً – الكتب

١ – إبراهيم جمعة/ **جامعة الإسكندرية في العصر الإغريقي الروماني والنقل عنها وتأثر العقل العربي بعلومها**.– القاهرة: المطبعة العالمية، ١٩٨١.

٢ – إبراهيم نصحي/ **تاريخ مصر في عهد البطالمة**.– ط٤.– القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٧.

٣ – أحمد أمين/ **ضحى الإسلام**.– ط٨.– القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧٤.

٤ – أحمد شلبي/ **موسوعة التاريخ الإسلامي**.– ط٤.– القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧٩.

٥ – بتلر، ج / **فتح العرب لمصر**؛ ترجمة محمد فريد أبو حديد.– القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩٠.

٦ – جبرائيل سليمان جبور / **كيف أفهم النقد: نقد و[illegible]**.– بيروت: ١٩٨٣.

٧ – جرجي زيدان / **تاريخ آداب اللغة العربية**.– ط٢.– القاهرة: دار الهلال، ١٩٧٨.

٨ – ـــــــ / **تاريخ التمدن الإسلامي**.– القاهرة: دار الهلال، ١٩٥٨.

٩ – حسن إبراهيم حسن / **تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي**.– ط٦.– القاهرة : مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦١.

١٠– حسن رشاد / **الكتاب والمكتبة والقارئ**.– القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٧.

١١– ستيبتشفيتش، ألكسندر/ **تاريخ الكتاب**؛ ترجمة محمد م. الأرناؤط.– الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٩٣ (عالم المعرفة؛ ١٦٩).

١٢– سيدة إسماعيل كاشف / **مصر في فجر الإسلام من الفتح الإسلامي إلى قيام الدولة الطولونية**.– القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٧٠.

١٣– عاصم أحمد حسين / **دراسات في تاريخ وحضارة البطالمة**.– القاهرة: غاديكو، ١٩٩١.

١٤– عبدالحليم منتصر / **تاريخ العلم ودور العرب في تقدمه**.– ط٦.– القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٧.

١٥– عبدالستار الحلوجي / **لمحات من تاريخ الكتب والمكتبات**.– القاهرة: دار الثقافة، ١٩٨٢.

١٦– عبداللطيف الصوفي / **لمحات من تاريخ الكتب والمكتبات**.– دمشق: دار طلاس، ١٩٨٧.

١٧– لويس عوض / **دراسات في الحضارة**.– القاهرة: دار المستقبل العربي، ١٩٨٩.

١٨– محمد أحمد حسين/ **مكتبة الإسكندرية في العالم القديم**.– القاهرة : مكتبة الاعتماد، ١٩٤٣.

١٩– محمد ماهر حماده / **المكتبات في العالم: تاريخها وتطورها حتى مطلع القرن العشرين**.– الرياض: دار العلوم، ١٩٨١.

٢٠– ـــــــ / **المكتبات في الإسلام: نشأتها وتطورها ومصائرها**.– ط٥.– بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، ١٩٨٦.

٢١– محمود السيد سلطان / **مسيرة الفكر التربوي عبر التاريخ**.– جدة: دار الشروق، ١٩٨٣.

٢٢- مصطفى العبادي / **مكتبة الإسكندرية القديمة**.- القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٧.

٢٣- ـــــــ / **العصر الهلينسي: مصر**.- بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٨١.

٢٤- نبيل راغب / **عصر الإسكندرية الذهبي: رؤية مصرية علمية**.- القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣.

٢٥- نسيبة عبدالرحمن كحيلة/**مقدمة في تاريخ الكتب والمكتبات**.- جدة: دار البيان العربي: [د. ت].

٢٦- نظمي لوقا / **عمرو بن العاص**.- القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٠.

٢٧- هيسيل، الفرد / **تاريخ المكتبات**؛ ترجمة شعبان خليفة .- ط٢.- الرياض: دار المريخ .

٢٨- هارولد بل / **مصر من الإسكندر حتى الفتح العربي: دراسة في انشاء الحضارة الهيلينية واضمحلالها**؛ ترجمة عبداللطيف أحمد علي.- ط٣.- القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٧٣.

ثانياً - المقالات :

١ - إبراهيم عبدالواحد. مكتبة الإسكندرية، **المقتطف**: مج٥٥، نوفمبر ١٩١٩، ص٤٤٣.

٢ - إبراهيم يوسف الشتله. الإسكندرية عبق التاريخ وصخب البحر، **المجلة العربية**: ع١١٩، أغسطس ١٩٨٧، ص٤٢- ٤٦.

٣ - أبو بكر الكدلوندي. حريق مكتبة الإسكندرية: من المسئول؟ **الدراسات الإسلامية**: باكستان، ع٢، أبريل ١٩٨٦، ص٧٥- ٨٩.

٤ - أبو السعود إبراهيم. مكتبة الإسكندرية القديمة ديموقراطية التعليم: **المجلة العربية للمعلومات**: مج١، ع٢، ١٩٧٨، ص١٠١- ١٠٦.

٥ - أبو فار. هل أحرق العرب مكتبة الإسكندرية بأمر عمرو ابن العاص وإذن عمر بن الخطاب؟، **المجلة العربية**: ع٣، ديسمبر١٩٧٦ - يناير ١٩٧٧، ص٥٤-١٦٠.

٦ - أبو الفتوح عطيفة. جامعة الإسكندرية، **الرسالة**: ع٥٠١، فبراير ١٩٤٣، ص١١٩-١٣٠.

٧ - أحمد خيري. بعض المكتبات القيمة الخاصة التي كانت بمصر في هذا العصر واندثرت، **مجلة معهد المخطوطات العربية**: ع١، مايو ١٩٦٤، ص١٨٥-١٩٠.

٨ - أحمد رافع. مكتبة الإسكندرية، **المقتطف**: مج١٦، ع ١٨٩٢، ص٦١٩ - ٦٢٢.

٩ - أحمد زكي. سؤالان خطيران: أنت تكتب عن أمجاد العرب أم أمجاد المسلمين؟، **العربي**: ع٦٣، فبراير ١٩٦٤، ص٨-١٢.

١٠- أحمد شوقي بنبين. خزانة الإسكندرية، هل أحرقها العرب، **الإعلامي**: ص١، ع١ أبريل ١٩٨٢، ص١٠٢-١٢٠.

١١- أحمد عبده محمود. الإسكندرية الثغر المصري الجميل، **المنهل**: ع٤٩٦، يونيو ١٩٩٣. ص٦٠-٦٦.

١٢- أحمد علي المجذوب. إحراق العرب مكتبة الإسكندرية كذبة مفضوحة، **الوعي الإسلامي**: ع٣٦٣، يوليو ١٩٨٦، ص٣٨-٤٤.

١٣- أنور المعداوي. حول مكتبة الإسكندرية، **الرسالة**: ع٨٨٤، يونيو ١٩٥٠، ص٦٧٢-٦٧٣.

١٤- جميل رسمي. لماذا لا ينتهي الجدل حول موضوع حريق مكتبة الإسكندرية، **عالم المكتبات**، س٣، ع١، يناير - فبراير ١٩٦١، ص٢٦- ٢٩.

١٥- الحبيب الشاويش. حريق مكتبة الإسكندرية، **المقتطف**: مج٤٦، أبريل ١٩١٥، ص٤١١-٤١٢.

١٦- حمد عبدالرحمن الجنيدل. من تاريخ المكتبات، **الفيصل**: ع٢٤، مايو ١٩٧٩، ص١١٦-١١٩.

١٧- خليل جمعة الطوال. مكتبة الإسكندرية: تأسيسها ورواية حرقها، **الرسالة**: ع٣٧٥، أكتوبر ١٩٣٨، ص١٦٤٩-١٦٥٠.

١٨- ـــــــ. مكتبة الإسكندرية: تأسيسها ورواية حرقها، **الرسالة**: ع٢٧٦، أكتوبر ١٩٣٨، ص١٦٩٠- ١٦٩٢.

١٩- الرائد التونسي. مكاتب العرب، **المقتطف**، مج٧، ١٨٨٣، ص٥٦٤.

٢٠- ربحي مصطفى عليان. هل أحرق المسلمون مكتبة الإسكندرية القديمة، **منار الإسلام**: ع١٠، أبريل ١٩٩١، ص٧٣- ٧٨.

٢١- سعد عبدالله الضبيعان. مكتبة الإسكندرية القديمة: لمحة تاريخية، **العصور**: مج٤، ج١، يناير ١٩٨٩، ص٧- ٣٢.

٢٢- سليم زبال. الإسكندرية عروس البحر الأبيض ذات الشباب المتجدد، **العربي**: ع٣١، يونيو ١٩٦١، ص٥٣- ٨١.

٢٣- شاكر العجلوني. مكتبة الإسكندرية الجديدة، مركز ثقافي حضاري يحيا من جديد، **رسالة المكتبة**: ع٣، يونيو ١٩٨٨، ص٤٠-٤٦.

٢٤- عبدالستار الحلوجي. لمحات من تاريخ الكتب والمكتبات. **مجلة المكتبات والمعلومات العربية**: ع١، يناير ١٩٨١، ص١٢٦- ١٢٩.

٢٥- عبدالعظيم أحمد هيبة. حول جامعة الإسكندرية، **الرسالة**: ع٥٠٣، فبراير ١٩٤٣، ص١٥٧-١٥٨.

٢٦- عبدالقادر محمود. نشأة المكتبات العربية الإسلامية وأفضال المسلمين عليها، **عالم المعلومات**: س٤، ع١، ١٩٨١، ص٨٠-٨٣.

٢٧- فؤاد صروف. مكتبة الإسكندرية وطرف من آثار علمائها في عهد البطالمة، **المقتطف**: مج٨٦، يناير ١٩٣٥، ص٦-١٤.

٢٨- لويس شيخو اليسوعي. متحف الإسكندرية ومكتبتها، **المقتطف**: مج٢٨، يوليو ١٩٠٣، ص٥٩٠-٥٩٤.

٢٩- ـــــــ. العلوم العربية وحريق مكتبة الإسكندرية، **المشرق**: ع٤، أبريل ١٩١١، ص٢٩٩-٣٠٧.

٣٠- ـــــــ. العلوم العربية وحريق مكتبة الإسكندرية، **المشرق**: ع٥، مايو ١٩١١، ص٣٨٨-٣٩٣.

٣١- محمد رستم ديوان. المكتبات في العالمين العربي والإسلامي في العصر الوسيط / ترجمة يوسف داوود عبدالقادر، **المورد**: مج٩، ع٤، ١٩٨١، ص٢٤٨-٢٩١.

٣٢- محمد العزب موسى. مكتبة الإسكندرية لم يحرقها العرب، **قضايا عربية**: ع٦، سبتمبر ١٩٧٥، ص١١١- ١٢٨.

٣٣- محمد عزت الطهطاوي. عمرو بن العاص، هل قام حقيقة بإحراق مكتبة الإسكندرية؟، **الوعي الإسلامي**: ع٥٦-٦١، أغسطس ١٩٨٣، ص٥٦-٦١.

٣٤- محمد ماهر حمادة ومحمد عوض العايدي. المكتبات في العالم، تاريخها وتطورها، **مجلة المكتبات والمعلومات العربية**، : ع٣، أبريل ١٩٨٣، ص١٣١-١٣٥.

٣٥- محمد محمد أمان. إحياء مكتبة الإسكندرية القديمة بين الماضي والمستقبل، **مجلة المكتبات والمعلومات العربية**، ع٢، أبريل ١٩٨٨، ص١٣٢-١٥٥.

٣٦- محمد محمود مهيدان. حريق مكتبة الإسكندرية، **رسالة المكتبة**: مج١٣، ع٢، يونيو ١٩٧٨، ص٢٠- ٢٥.

٣٧- محمود الحامد. لماذا مكتبة الإسكندرية، منار الإسلام، ع٨، فبراير١٩٩٢، ص١٠٠-١٠٦.

٣٨- محمود محمد السالم. مكتبة الإسكندرية، الفيصل: س٨، ع٩٠، سبتمبر ١٩٨٤، ص١٢٦-١٣٠.

٣٩- نسيبة عبدالرحمن كحيلة. مقدمة في تاريخ الكتب والمكتبات. مجلة المكتبات والمعلومات العربية: ع٣، أبريل ١٩٨١، ص١٧٩-١٨٤.

ثالثاً - مقالات بدون مؤلف:

١ - تخطيط جديد لمنطقة مكتبة الإسكندرية، المدينة العربية : ع٤٤، يوليو ١٩٩٠، ١٦ص.

٢ - حصر مخطوطات مكتبة الإسكندرية، الفيصل: ع٢٠٧، فبراير- مارس ١٩٩٤، ١٣٦ص.

٣ - مكتبة الإسكندرية. المقتطف: ع٩، يونيو ١٨٩٢، ص٦١٩-٦٢٣.

٤ - مكتبة الإسكندرية: إحياء أول مكتبة عالمية في التاريخ. المجلة العربية للمعلومات: ع٣، ١٩٨٨، ص١٣٠-١٣٦.

٥ - مكتبة الإسكندرية الكبرى من بطليموس إلى ...، المنهل : ع٤٦٦، أكتوبر - نوفمبر ١٩٨٨، ص٣٠٧.

٦ - مكتبة الإسكندرية ومدرستها، المقتطف: ع١، يناير ١٩٣٥، ص٦-١٤.

٧ - هبات المكتبات، المقتطف: مج٢٠، أكتوبر ١٩٨٦، ص٧٨٧-٧٨٨.

رابعًا - أطروحات ورسائل جامعية:

١ - محمد أحمد محمود حسب الله. مكتبة الإسكندرية ومناقشة أراء المؤرخين حول حريق العرب لها. جامعة الأزهر. ماجستير. ٧٣-١٩٧٤م. ١٣٤ص.
[ماجستير: جامعة الأزهر. قسم التاريخ والحضارة، جامعة الأزهر، إشراف محمد كامل مراد، ١٩٧٤].

خامساً - موسوعات ومعاجم أعلام :

١ - الموسوعة العربية الميسرة، شفيق غربال ، دار النهضة ، لبنان، ١٩٨٠.

٢ - موسوعة المورد، منير بعلبكي، دار العلم للملايين، لبنان، ١٩٩٠.

٣ - المنجد في الأعلام، بيروت، ١٩٧٣.

سادساً - المراجع الأجنبية

أ - الكتب :

1- Le BEN , GUSTAVE / La Civilisa hom des Arbes. Paris : 1884.

2- BIUM, handalh / The Alexandrian library and the origin of bibliography. Trans. by Hans H. Swllisch. Univ of wisconsin wisconsan, 1991.

3 - BURTON , MARGRET / Famous libravies of the World . Their history, Collechons and adminstration. London Grafton & Co. 1937.

4 - BURY , J . B . / History of the bter Roman Empire. London : 1889.

5 - CALVAL, Jean - Pierre and TOCATLIAN, Jacques / Feasability. Shudy for the revival of the Ancient library of Alexandria . Firstphose, Paris : UNESCO, 1987.

6 - DIRINGER, David / The Book Befare Printing - An cientmedieval and Oriental. New York : Dover Pub. Inc., 1953.

7 - DURANT, Will / The life of Greece, the Sory of Civilization: Part II . New York : Simarand Schaster, 1966.

8 - GIBBON, Edward / The history of the decline and Rall of the Roman Empire. Ed . by J.B. Bwry, Vol . v. 4 th ed., London : 1911.

9 - ITAYEM , Mohmad A. / Revival of Arcient library of Alexandria , part 3 , a collechan development plan, Paris : UNESCO . 1984.

10 - JAKSON , Sindey L./ libraries and libairanship in the west . Abrf history. NeW York : Mcgvew Hill Book Co. 1974

11 - KENYON , Fridric G . / Books and readers in ancient Greece and Rome . Secnd Ed. OXFORD: The Clarendar press, 1951.

12 - NOURRISSON , V . / La bibliotheque des Ptolemee , Alexandria, Paris: 1893.

13 - Olle , Jemes G / library History. london : Clive Binglg , 1971.

14 - PEArSON , Edward . Alexander / The Alexandria library : Glary of the . Hellenic World . london : Cleaverhulme Press, 1952.

15 - TEE , Lim Huck / Revival of the ancient library of Alexandria project . Port . 1,2 . Paris : UNESCO, 1987.

16 - THIEM . J . / The Great library of Alexandria burnt : Towards the history of a Sambal , th.

ب – المقالات :

1 - AMAN , MOHAMMED M . / Revival of the Ancient library of Alexandria, library Times Internahianal : Vol . 4 , no . 4 , 1988. p p . 50 - 51.

2 - JAKSON , Sindey L. / Alexandria library , in : World Encyclopedia of library and Inpar maticn Servicis , zed ed . , Chicago : ALA , .
1986. p p . 39-41.

3 - THIEM , J . / The Great library of Alexandrda burnt: Towards the history of a Sambol . The History of Ideas , 40 , 1979 , p p . 507 -526.

ج – موسوعات :

1 - The Encyclopedia Americana . Americana Carporation New York. 1964.

2 - The New Encylopaedia Britanica , MICRO PAEDIA , Ready Reference . Chicago. 1989.

3 - WEBSTER'S BIOGRAPHICAL DICTIONARY. SPRINGFIELD , MASS, USA : G &C. MERRIAM CO. Publishers , 1965.

4 - LAROUSSE ILLUSTRATED ONTENATIONAL ENCYCLOPEDIA AND DICTIONARY, PARID, 172.

5 - LA GRANDE ENCYCLOPEDIE LARIUSSE, PARID, 1976.

6 - Encyclopedia of libraranan Ship , 3 ed ed., london : Bws and Bows, 1968

المراجعات

حياتي مع الجوع والحب والحرب

لعزيز ضياء



عبدالله عبدالرحمن الحيدري
إذاعة الرياض

ضياء، عزيز / حياتي مع الجوع والحب والحرب .- ط١- جدة : دار البلاد للطباعة والنشر ومؤسسة الشرق الأوسط للإعلان والثقافة والنشر ، (د . ت) جزآن ، الجزء الأول ٣٩٤ص ، الثاني ٢٩١ص .

في ١٤٠٥/١١/٢٩هـ طالعت مجلة اقرأ الأسبوعية الصادرة بمدينة جدة قراءها بالحلقة الأولى من مذكرات عزيز ضياء «حياتي مع الجوع والحب والحرب» مذيلًا عنوانها بمثل فرنسي نصه «الحياة كالبصلة يقشرها المرء وهو يبكي !» . وقد تتابع ظهور هذه الحلقات على صفحات المجلة حتى بلغت إحدى وعشرين حلقة مكونة الجزء الأول من حياة ضياء مع الجوع والحب والحرب، وكان ذلك بتاريخ ١٤٠٦/٥/٦هـ .

وبنهاية الجزء الأول هذا قدم ضياء اعتذاره عن إكمال مذكراته : «أجد نفسي أميل إلى الاعتذار عن كتابة القسم الثاني فضلاً عن الثالث ، وأتمنى أن يمن عليّ القراء، ومنهم رئيس تحرير هذه المجلة .. بالموافقة على إعفائي من كتابة بقية الفصول» (١) .

ولم يسع المجلة إلاّ قبول الاعتذار معللة التوقف بأنه فرصة للراحة ولتجميع شتات الذكريات، ومن ثم مواصلة الكتابة «ونيابة عن القراء وأنفسنا لا نوافقه على طلب التوقف - ولأجل غير مسمى - عن كتابة الجزء الثاني من هذه الذكريات ؛ لأن ذلك ليس من حقه أولاً ، وهو في الوقت ذاته مطلب من مطالب القراء الذين تابعوا حلقات الجزء الأول وعبّروا من خلال اتصالاتهم ورسائلهم عن سعادتهم بمطالعة تلك الحلقات» (٢) .

وكان للقراء ما أمّلوا ، ولم يكن للمجلة ما أملت ؛ ذلك أن عزيز ضياء عاود نشر الجزأين : الثاني والثالث في مطبوعة أخرى بعد نحو أربع سنوات من توقفه، وكان ذلك بتاريخ ١٤١٠/٥/١هـ على صفحات مجلة «اليمامة» الأسبوعية .

ولقد بقيت هذه الحلقات بعد نشرها في أدراج مؤلفها ولم يفكر بلم شتاتها حتى ألحَّ عليه عبدالله مناع الذي كان الدافع وراء نشر الجزء الأول منها على صفحات مجلة اقرأ إبَّان رئاسته لتحريرها ، حيث أشارت جريدة «المسائية» في عددها ٣٤٣٩ الصادر بتاريخ ١٤١٣/١١/٢٧هـ ، ص٩ إلى أن سيرة عزيز ضياء الذاتية المسماة «حياتي مع الجوع والحب والحرب» تدور بها المطابع ، وأنها على وشك الصدور؛ وذلك استنادًا إلى تأكيد مدير دار البلاد للطباعة والنشر بجدة عبدالله مناع.

وقد طبع الكتاب بعد أشهر معدودة من إشارة «المسائية» ، وجاء الكتاب في جزأين وفي أكثر من خمس مئة وثمانين صفحة من القطع المتوسط، غير أنه سقط تحديد تاريخ نشر الكتاب ، وهو عام ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م (٣) .

كان عمر عزيز ضياء حين بدأ بكتابة سيرته عام ١٤٠٥هـ على حلقات في مجلة اقرأ ثلاثًا وسبعين سنة، فيما جاوز الثمانين حين رآها بين دفتي كتاب .

يتساءل عزيز ضياء في مستهل سيرته وتحت عنوان «أول صباح في حياتي» فيقول : «من الذي يستطيع أن

يذكر أول صباح في حياته ما دام قد استقبل الحياة ذات يوم ودرج مع الأحياء يستقبل معهم الإصباح كما يستقبل الإمساء ، ويرفع عينيه إلى النجوم ويبهره القمر : هلالاً ، ثم مراحل من استدارته إلى أن يصبح بدرًا ؟» ويجيب : «ولكن أنا ... أنا أذكر أول صباح في حياتي ... أدركه ولعله حتى بعد أن أوغلت في طريق العمر وحتى بعد أن رأيت مئات من سويعات الصباح في طفولتي وأيام صباي وفي شبابي بكل ما عرفت في أيام ذلك الشباب من أفراح ومآسٍ ، ومن تغلب على المشاق والمتاعب ، أو انحدار وتراجع أمام الواقع بكل تجهمه وعبوسه ... ما أزال أذكر أول صباح في حياتي ، وكأنه أول ساعة من عمري ....» (٤) .

فـ «عزيز ضياء» هنا يملك أداة التشويق والتأثير في قارئه بهذه البداية الرائعة التي تدعو إلى الدهشة والاستغراب، بحيث لم يلجأ إلى الأسلوب التقليدي المعتاد في بعض السير الذاتية أو الذكريات التي تكون بدايتها – في غالب الأحيان – «ولدت في مدينة كذا عام ... ودرست على يد فلان وفلان ... إلخ» .

ثم إننا نجد في سيرة عزيز ضياء أسلوبًا قصصيًا يعتمد على العقدة المشوقة والحل المفاجئ أحيانًا ، فعندما كان على الفراش للنقاهة بعد عملية الختان أتى إليه عدد من الزائرين للاطمئنان عليه ، غير أن الذي استرعى انتباهه أن كلاً منهن تصر على أن تدخل يدها تحت الوسادة ... لماذا ؟ لم يفهم شيئًا . ومرت أيام وسر الوسادة يشغل باله إلى أن حانت له فرصة من غفلة الزائرات انكشف له فيها السر ، وهو أن الذي تحت الوسادة إنما هو قطع نقد فضيّة مما كان يتداوله الناس في تلك الأيام (٥) .

وعلى الرغم من بساطة الحدث ، استطاع الكاتب أن يجعل منه حدثًا مشوقًا ينتظر القارئ حل عقدته بكل لهفة. ومما يلاحظ أن عزيز ضياء في سيرته هذه يتقمص شخصيتين ؛ إحداهما : شخصية الطفل الراوية ذي السنوات الأربع أو الخمس ، وهذه تأخذ نصيب الأسد ؛ والأخرى : شخصية الكاتب الحالية التي يلجأ إليها بصورة ليست مطردة عندما يشعر بضرورة ربط الأحداث الماضية بالحاضرة ، أو عندما يشعر بشكوك القارئ في حقيقة ما يرويه له على لسان الطفل الراوية (٦) .

ولابد للباحث أن يفترض أن عزيز ضياء – بحكم إجادته لعدد من اللغات الأجنبية – على وعي تام بأصول فن السيرة الذاتية وخصائصها وشروطها، ولابد له – تبعًا لذلك – أن يفترض أنه على اطلاع على روائع هذا الجنس الأدبي ، إن في الأدب العربي ، وإن في اللغات الأوربية بعامة (٧) .

إن عزيز ضياء بما اكتسب من معارف واسعة : شرقية وغربية أدرك – إلى حد كبير – القالب الفني الصحيح الذي تكتب به السيرة الذاتية الفنية ، فجاءت سيرته «حياتي مع الجوع والحب والحرب» تحمل وعيًا ملحوظًا بهذا الفن وأسسه التي يقوم عليها .

وما أشبه سيرته برواية تكوين الشخصية Bildungsroman التي تعتمد على الوصف الدقيق للأطوار التي تمر بها إحدى الشخصيات الرئيسة من الطفولة إلى النضج – كما يصفها النقاد الألمان – (٨) .

وإذا كانت الرواية في الأدب Novel تعرّف بأنها «سرد نثري خيالي طويل عادة» (٩) ، فإننا نستطيع أن نصف سيرة عزيز ضياء بأنها سرد نثري واقعي طويل اجتمعت فيه عناصر روائية عدة ، كالحدث ، والتحليل النفسي ، وتصوير المجتمع ، وتصوير العالم الخارجي ، والحوار ، كما أن عزيز ضياء اعتمد على الإسهاب والإطالة في الوصف ، واستعان بتيار الشعور و«المنولوج» الداخلي للتعبير عن القدرات النفسية (١٠) .

ومن ناحية الشكل ؛ فإن الرواية تهتم بتصوير الشخصيات من خلال سرد الحدث فيما لا يقل عن ستين أو مئة ألف كلمة (١١) ، وهذا ينطبق على عمل عزيز ضياء الذي يعادل رواية طويلة جداً تقع في أكثر من مئة وستين ألف كلمة .

وفي نظري أن اختيار عزيز ضياء لهذا الشكل الروائي لم يكن عفواً ؛ لأنه يدرك أن السيرة الذاتية عندما أصبحت شكلاً أدبياً مستقلاً أخذت عن الرواية طريقة عرض الأحداث وفقًا للتسلسل الزمني ، وأخذت عنها السرد الذي يعتمد على ضمير المتكلم «أنا» (١٢) .

ولقد تحققت في سيرة عزيز ضياء عوامل كثيرة ساعدت على وجود المتعة الأدبية فيها ، كالمهارة في السرد، والدقة ، والوضوح ، والسهولة والعذوبة ، إضافة إلى مميزات أخر جعلت منها سيرة ذاتية فنية ، كالعناية بتطور الشخصية ، وتجسيد الصراع ، ورسم الشخصيات ، وتوظيف الحوار توظيفاً فنياً متقناً ، والعناية بأدق التفاصيل .

وثمة شيء آخر ، فانعكاس الأحداث على نفسه من خلال القصّ والحوار لم يكن تقريراً / إخبارياً ، وإنما من خلال رؤياه آنذاك وعلى لسان الطفل الراوية الذي يرى الأحداث ويتفاعل معها ويعبِّر عنها بأسلوبه هو، فطفولة عزيز ضياء تفتحت على نذر الحرب العالمية الأولى ، حيث اضطر والي المدينة العثماني آنذاك إلى ترحيل سكان المدينة إلى دمشق، ثم إلى حلب وكان أن روى الأحداث المثيرة التي رآها هو ووالدته وجدُّه في هذه الرحلة المأساوية من المدينة إلى الشام ، فالمدينة مرة أخرى من خلال رؤية الطفل الذي شاهدها ، وليس بالاستعانة بالكتب التاريخية التي تناولت الحرب العالمية الأولى ، يقول : «كان انقطاع أو توقف الانفجارات والقصف وزخات رصاص الرشاش ، وذلك الهدوء الذي ساد المدينة ، أو المنطقة التي يقع فيها منزلنا حالة وقتية يظهر أن مسيرة الحرب بين الجانبين استلزمتها ، إذ لن أنسى تلك الليلة التي استيقظت فيها مرتعبًا وأصوات الانفجارات تصم الآذان، وتزلزل المنزل ، وإلى جانبي الاثنان اللذان بقيا لي : جدي وأمي ... لم أرهما وأنا أفتح عيني وأجلس فقد كان الظلام حالكًا ، ولكني أحسست بهما وجدي يتلو أدعيته ، وأمي تقرأ : ([الله] لا إله إلاّ هو الحي القيوم) ولكن بصوت عرفت أنه يتقطع ؛ لأن أسنانها تصطك من الرعب ..» (١٣) .

وعلى الرغم من أنه توافرت لسيرة عزيز ضياء الذاتية خصائص فنية مميزة ، لم يوفق الكاتب حين اختار اللهجة العامية لغة للحوار ، بحيث قد يمتد الحوار بالعامية أكثر من ثلاث صفحات أحيانًا (١٤) من مثل ذلك قوله :

«– أنا ... أنا وعزيز ضياء وصلنا اليوم في الصبح.

– إنتي وعزيز ؟ مين ؟ هادا الولد ؟ هادا ولدك موكده طيب عسى ..

وقاطعته وهي تقول :

– أنا وعزيز وبس اللّي وصلنا ..

– طيب والتانين .. أختك وزوجها .. و

– كلهم .. كلهم يا عم صادق

واختنق صوتها مرة أخرى بالبكاء وهي تقول :

– كلهم راحوا يا عم صادق .. قول .. الله يرحمهم» (١٥).

النزعة القصصية

وقبل أن ننتقل لمناقشة العامية عند عزيز ضياء نشير إلى النزعة القصصية عنده وملامح السرد القصصي ، حيث تحقق في سيرته شيء ليس بالقليل من خصائص السرد القصصي ، ولولا أخطاء فنية وشكلية وقع فيها من مثل : (قطع السرد ، العامية) ، لكانت هذه السيرة في مصاف السير الذاتية العربية الجيدة .

على أنني أضع هذه السيرة في المقدمة من بين نظيراتها في الأدب السعودي ، لكون عزيز ضياء بهذه السيرة الذاتية الجيدة قد خطا بفن السيرة الذاتية في الأدب السعودي خطوات كبيرة إلى الأمام ، وليت كتابنا في المستقبل يستفيدون من تجربته (١٦) ، ويتجنبون ما وقع فيه من أخطاء .

ومما يلاحظ في سيرة عزيز ضياء أنه يجمع بين الوصف والحوار ، فنراهما يتقاسمان الأدوار ، ففي مستهل الفصول يصف ويسرد الحدث ، ثم يأخذ الحوار دوره في عفويةٍ وانسيابية ، ليشكلان بناء فنياً يهدف إليه الكاتب ، وهو التنويع في أسلوب القص، وعدم الإملال ، فيلجأ إلى عرض قصة حياته عبر قناتين ، لا واحدة .

وقد يكون الحوار عند عزيز ضياء بين شخصيتين فقط، وقد يكون بين أكثر ، وقد يكون هناك شخصيتان ناطقتان ، والثالثة تراقب الموقف ، كما في الحوار التالي بين أمه وإحدى صديقاتها ، أما هو فقد أسند إلى نفسه مراقبة الموقف ، والنهوض بمهمة التعبير عن العواطف وحركات اليدين وخلافها :

«– ما ادرى يا فاطمة .. يا ترى يجيبوا هادا السَّحلب (١٧) من اسطمبول بعد «السفر بَرْلِك؟» (١٨) (وتجيبها أمي بنبرة مفعمة بالحزن) :

– منين يا خالة ؟ خلاص طريق اسطمبول مقفول من زمان .. وانتي عارفة كمان انهم بيقولوا بدّهم يعزلوا السلطان رشاد !

(ولا تكاد أمي تقول هذا الكلام حتى تخفق الخالة فاطمة صدرها بيدها وهي تقول) :

– يعزلوا السلطان ؟ مين يا بنتي اللّي يقدر يعزل السلطان ؟ إنتي يدخل في عقلك زي هادا الكلام ؟

– طيب يا خاله مَهُو عزلوا قبله السلطان عبدالحميد.

(وتعود الخالة فاطمة إلى خفق صدرها بيدها لتقول):

– ومين اللّي قال : إنهم عزلوا «البادیشاه» (١٩) هوه اللّي أمر إنهم يسووا السلطان رشاد عشان يبغا يفضي نفسه للذكر والصلاة .

(وتتخابث أمي .. وألمحها تغمز بدرية غمزة خفيفة، لتقول) :

– يعني "البادیشاه" دحين قاعد .. ما أحد عزله .. وكمان ما مات ؟» (٢٠) .

فالملاحظ أن الحوار بين شخصيتين فقط ، وليس له إلاّ مهمة الإخراج – إن صح التعبير – وذلك بمحاولته إضفاء الحيوية والحرارة على الحوار بكلمات الربط التي يضعها أثناء الحوار ، تعبيرًا عن انفعالات المتحدثين، ورسمًا لحركات اليدين أو الوجه ، وذلك واضح في قوله : «بنبرة مفعمة بالحزن» ، «تخفق الخالة فاطمة صدرها بيدها» ، «وتتخابث أمي ...» .

ويكاد يكون الحوار لدى عزيز ضياء في سيرته الخصيصة الرئيسة التي تقوم عليه السيرة ، فمن خلاله يصور الأحداث ، ويبرز الأفكار ، ويرسم الشخصيات ، وتتضح للقارئ من خلاله حدود الزمان والمكان .

ويعتمد عزيز ضياء على الحوار بوصفه وسيلة لنقل الأحاسيس والانفعالات ، ودفع الحوادث إلى الأمام .

وقد يقوم الكاتب بدور شخصيتين في الوقت نفسه ، فالأولى : شخصية الطفل الذي يروي قصته، والأخرى : الشخصية الحالية (زمن الخطاب أو الكتابة) ، ويقتصر دورها على الشرح والإيضاح وإضاءة الحدث ، بإضفاء روابط لابد منها ليكون الموقف واضحًا في ذهن القارئ :

«– خبّيزة ؟ منين اشتريتوها ؟

(وأحسست بشيء ربما من الاطمئنان، أو الزهو ، فقدت) :

– ما اشتريتها يا خالتي أنا جبتها من هناك ..

– فين هناك ؟

– من هناك .. بعيد !

(وحين جاءت أمي ورأت الخبيزة مكومة على الأرض لم تلتفت ، أو يستوقفها ما رأت واندفعت نحوي، ولكن خالتي أحاطتني بذراعيها وهي تقول) :

– يتوب ياستيته .. يتوب .. كمان شوفي أيش جايب!

(وفي هذه اللحظة دخل جدي مقطبًا متوترًا .. امتلأت رعبًا قاتلاً ، ولكن خالتي استطاعت أن تشفع لي .. كما استطاعت "الخبيزة" أن تأخذ طريقها إلى المطبخ)، وأمي تقول :

– يمكن نلتقي عند (لتافت باجي) شوية (بُرْغل) .

(وغادر جدي الغرفة مُحْنقًا ، ولحقت به أمي ، وحين التفت إلى خالتي رأيت تلك الابتسامة الرقيقة كأنها تعبر عن الامتنان ، أو الانتصار في الدفاع عني) .

وحين تحلّقنا حول المائدة الصغيرة في المساء .. كان طبق (الخبيزة) يحتل مكانه عليها .. كانت لذيذة جداً ، قال جدي وهو يبتسم :

– هادا عبدالعزيز يا فاطمة .. إن شاء الله رجّال» (٢١) .

فنحن أمام شخصيات متعددة : والدته ، وخالته ، جدّه، وهو ، يضاف إلى هذه الشخصيات الرئيسة شخصية ثانوية هي (لتفات باجي) ، أما الحدث فهو (الخبيزة) التي جاء بها عزيز ضياء من مكان لم يستطع – لصغره – أن يحدده بالضبط، واكتفى بوصفه بـ «البعيد».

ونرى الحرص الشديد من الكاتب على رسم الانفعالات التي كان يرقبها بدقة تامة : الأم الغاضبة ، الخالة الحنون ، الجد المقطب الجبين المتوتر ، الذي تحولت صرامته وحوّل توتره في المساء – بفضل الوجبة اللذيذة – إلى ابتسامة عريضة !

فالحوار ، ونقل الانفعالات والتعبير عنها الذي يتخلله، أعطى للشخصيات صورة حية متحركة ، وأضفى على النص حرارة وحيويّة .

والباحث أن يتساءل : لماذا اختار عزيز ضياء الحوار شكلاً رئيسًا في سيرته ، ولم يجعله شكلاً ثانوياً كما صنع سابقوه من كتاب السيرة الذاتية، إن في المملكة، أو في العالم العربي ؟

من الممكن إرجاع ذلك إلى أنه يريد أن يكون منطوق شخصياته أقرب ما يكون إلى الواقع ؛ ولذلك آثر أن يكون الحوار بالعامية [٢٢] .

ومن غير المستبعد أن يكون السبب إضفاء الحيوية ، وإثارة التشويق والصراع بين الشخصيات المتحاورة ، مما قد يكون متعذراً لو أراد ذلك بطريقة سردية محضة لا يتمكن خلالها من إنطاق شخصياته كما رآها في الماضي، وكما يسترجع ذلك في الحاضر .

ولعلي أرجّح أن اهتمامه بعنصر الحوار، وتوظيفه توظيفًا فنيًا «دراميًا» في سيرته جاء إشباعًا لغريزته القصصيّة [٢٣] ، وبتأثير من حرفته الإذاعية ، حيث عمل مذيعًا في إذاعة الهند ، وأعدّ عشرات التمثيليات الإذاعية والتلفزيونية بين ثلاثين حلقة وسبع حلقات ، منها : أطلال ، الحصاد ، الكنز ، كانت أيام ، وغيرها [٢٤] .

وربما بتأثير التمثيلية الإذاعية اختار أن تكون لغة الحوار اللهجة العامية، فبعض أساتذة الإعلام الذين تحدثوا عن بناء التمثيلية وعنصر الحوار فيها يقولون : «الحوار الجيد ما نبع من صميم الشخصيات والأحداث، ودلّت كل كلمة فيه على معنى يكشف عن حقيقة ما .. وعبّر عنها تعبيراً طبيعياً لا افتعال فيه ، وضحّى فيه بزخرف الكلام وأناقته من أجل بناء الشخصية أو الأحداث» [٢٥].

على أن هذا الوصف لا يعني استخدام العامية، وإنما يعني اتخاذ لغة فصيحة سهلة، بدليل قول صاحب السطور السابقة في موضع آخر من كتابه : «أي محاولة لنقل الأحاديث العادية إن هي إلاّ محاولة مضحكة تبعث الحيرة والعجب ، وتبتعد بصاحبها عن الفن ...» [٢٦] .

أترى عزيز ضياء استعار بناء التمثيلية الإذاعية في سيرته الذاتية، واختار حوار التمثيلية الشعبية ؟ ذلك ما أميل إليه .

وينزع عزيز ضياء إلى إضفاء الحركة على الحدث الذي يصفه، فيقف وينظر إلى الجهات كلها، ليقدم وصفًا يراه أمينًا في نقل الصورة، من حيث الحرارة والتدفق :

«كان وجهه ممتقعًا أصفر فعلاً ، وجسمه كله يرتعش، وأسنانه تصطك .. كنا ظللنا ننظر إليه، ولا شك أننا نحن أيضًا قد انتابنا خوف صاعق .. لم نتحرك من أماكننا .. كل الذي استطاعت أن تفعله أمي هو أن تضع على رأسها شرشف الصلاة الذي تناولته بيدها . ولم يكتف الحج عبدالرحيم بهذه الاندفاعة الصاروخيَّة ، بل زاد على ذلك أن ظلّ يلتفت إلى الباب ، بحيث جعلنا نتوقع أن هؤلاء الذين قال : إنهم كلهم في الدهليز سيدخلون علينا...» [٢٧] .

وقد يعمد إلى التهكم والسخرية القائمة على الاستعارة الجميلة في التعبير عن الموقف : «... واستطاع الحج عبدالرحيم أن يحيي [الليلة] ، فيحرمنا النوم الذي لم نذق له طعمًا مع جو الرعب والقلق والحكايات التي تتناسل واحدة إثر أخرى بلا انقطاع !» [٢٨] .

ومما يلاحظ لدى عزيز ضياء العناية التامة بالتحليل وتصوير الانطباعات النفسية على الشخصيات التي يصفها، مستعينًا بحركات اليدين ، وبالانطباع الذي يرتسم على الوجه ، وبالطريقة التي تتحدث بها الشخصية، كما يعنى برصد الحالة النفسية لشخصياته: مسرورة ، أم غاضبة ؟ تكتم الفرح، أم تظهره ؟ وكيف كانت حركات اليدين ؟ وطريقة ارتداء الملابس ... إلى آخر هذه التفصيلات الجزئية المهمة في رسم الشخصية. يقول : «غابت أمي عن المجلس لحظات ، وعادت وهي في هذا الفستان القطيفة الأحمر .. ما كاد النسوة يرونها فيه حتى شهقت الخياطة إعجاباً ، وحتى بدرية أخذت تتأمل أمي بنظرة فيها إعجاب بالغ، أما الخالة فاطمة جادة فقد أخذت تكرر (ألف ما شاء الله .. ألف ما شاء الله) يا فاطمة أقولك الحق ... (وتلعثمت قليلاً وهي تلتفت إليّ) ، ثم قالت :

– انتي ما يسير .. ما يسير يا بنتي تستنيه وهوه لا حس ولا خبر» [٢٩] .

وها هو يصف مشاعره بصدق وهو في انتظار

الختان الذي كان يُصاحب في بعض بيت أهالي المدينة أنذاك باحتفال ضخم تعزف فيه الموسيقا ... يقول : «كان الوقت بعد شروق الشمس عندما صدحت الموسيقى العسكرية فملأت قلبي رعبًا ما بعده رعب، وزاد من ارتباكي وخوفي دخول (أمي باجي) وهي تلهث تعبًا لتصعيدها في السلالم إلى الدور الثالث ... وما كادت تقف في الغرفة حتى قال بالتركية ما فهمت منه أنهم جاؤوا» (٣٠).

ويمتلك عزيز ضياء مهارة في السرد والوصف تتجلى في عنصر التشويق والإمتاع الذي تمتاز به صوره وشخصياته . وانظر إلى هذه الصورة التي يرسمها بمهارة، فلا يكتفي بنقلها إلى القارئ : «فوتغرافيّاً / صورة جامدة» ، ولكنه يستعين بالحركة في الصورة، لتكون متحركة أشبه ما تكون بصورة تلفازية جميلة ، يقول : «... ولم يطل الأمر فقد استعدت قواي المتخاذلة ، ووجدتني أحيط عنق أمي وهي عاكفة عليَّ بذراعيها ، وأسندني وجهها إلى وجهي وأنا أنظر إلى عينيها .. ورحمني البكاء ، ولكني تماسكت وبلعت ريقي بصعوبة ، بينما انذرفت من عيني دموع لم أستطع إمساكها .. رأتها أمي ، ولم يخنها ذكاؤها، فعادت توسعني ضمّاً إلى صدرها ، وترفع وجهي بين يديها وتقبلني .. ليس مرة واحدة، وإنما مرات وعدداً من القبلات النهمة الملتهفة !» (٣١) .

ولعل من أبرز الأخطاء التي يرتكبها عزيز ضياء في حق السرد القصصي ، قطعه في كثير من الأحيان ، بإضافة تعليق ، أو ربط الماضي بالحاضر ، أو لأي سبب آخر .

وهو قطع له ضرره البالغ على الترتيب الزمني، وعلى السياق العام للنص ، وعلى التصعيد في الحدث، إنه أشبه بالنتوءات التي تظهر في الجدار ، أو البثور التي تنتشر في الوجه الحسن !

ومثال ذلك لدى عزيز ضياء التفاتته إلى القارئ أثناء سرد الحدث : «كانت بدرية هناك ، وقد لفت نفسها في (شرشف) مرقط الألوان ، بحيث ينسدل من قمة الرأس إلى أخمص القدمين ، ولكن إحدى يديها كانت تمسك بالشرشف ، بحيث يحجب الفم وجزءاً من الوجنتين ؛ لتظهر العينان والحاجبان ...

ولعل القارئ يستكثر أن أقف عند تفاصيل من هذا النوع، وقد كنت الطفل الذي لا ينتظر أن يقف عندها...» (٣٢) .

لقد أفسد ضياء بتداخله هنا بالتعليق متعة الوصف والتشويق عند القارئ ، وياليته يدوِّن تعليقاته تلك في هامش ، حتى لا يفسد السرد القصصي .

ومن الأمثلة كذلك تعليقه على أحد مواقفه الطفولية البريئة :

«يا الله .. كم أشعر اليوم بجحودي في تلك اللحظات، كان هو الذي يسبق أمي إلى تهيئة الطبق أمامي» (٣٣) .

اللغة والأسلوب

تصطبغ ألفاظ عزيز ضياء بالحيوية والحرارة والوضوح كذلك ، يقول :

«واليوم بعد هذا الترحال الطويل في دروب الحياة .. تزدحم في القاع السحيق من أغوار النفس الكثير من مشاعر الحزن والأسى ومشاهد الفجائع والحسرات ، ولكن هذا الحزن الذي أطبق على قلبي يوم ماتت تلك الخالة الحبيبة كان هو أول الأحزان وأبعدها أثرًا وتأثيرًا في النفس؛ لأنه كان الحزن الذي ارتوى من ينبوع الحب الخالد، فامتدت له الجذور في الأعماق ، والفروع والأغصان في الآفاق ...» (٣٤) . فليس يخفى ما في قوله : (السحيق ، أغوار ، أطبق ، ينبوع) من حرارة وتدفق وجمال .

وتتضمن ألفاظه في الأغلب الأعم عنصر الحركة :

«ومشيت خلف الشيخ وقد هب جميع الصبية واقفين إلى أن جلس على مصطبته في صدر الكتاب، وهناك إلى جانبه في متناول يده رأيت "الجريدة الخضراء" ، وإلى جانبه أكثر من خيزرانة .. والأهم من كل ذلك "الفلكة" معلقة على الجدار خلفه، أما أنا فقد أجلسني محمد بين ولدين في مثل سني ، وارتفع صوت الشيخ يقول :

- اقرأ يا ولد! ... وارتفعت أصوات الأولاد تقرأ» (٣٥).

فألفاظه على الرغم من بساطتها وسهولتها اكتسبت حيويتها وتدفقها من حسن التأليف بين هذه الألفاظ ، وإضفاء عنصر الحركة باستخدام الأفعال ، إلى ما في

النص السابق من جاذبية ووضوح .

ولا تكاد السهولة والرشاقة تفارق عزيز ضياء ، ومبعث ذلك عنصر القص والحركة : «وكانت بدرية تضيء لنا الطريق من الدهليز إلى الديوان بتلك المسرجة المألوفة في كل بيت وقد حملتها في يدها مرفوعة إلى مستوى الكتف تقريبًا، ومع ذلك فقد استطعت أن أتأمل ملامحها ، ولعل الأصح أن ملامحها هي التي شدَّت انتباهي» (٣٦) .

ولكن عزيز ضياء يتخلى عن الفصحى إلى العامية في الحوار، ولذلك فإن من المؤاخذات اللغوية التي لا يمكن المرور عليها سريعًا دون مناقشتها اتخاذه اللهجة الدارجة لغة للحوار ، وليس ذلك بالشيء الضئيل في سيرته ، ذلك أنه يستغرق أجزاء كبيرة تصل إلى النصف ، وليس من المبالغة في شيء إذا قيل : إن الحوار العامي يتقاسم السرد الفصيح في الحضور ، بل يكاد يتجاوزه .

واتخاذ الكاتب العامية لغة للحوار لم يكن سببه ضعف قدراته اللغوية، فالكاتب ممن لا يتطرق الشك مطلقًا إلى عجزه عن إجراء الحوار بالفصحى ، بل وبالفصحى المشرقة الجميلة .

ولقد وفق أحد الكتّاب في مناقشته لهذه المسألة عند عزيز ضياء بما ليس عليه من مزيد ، حيث قال : «وفي هذا الكتاب ... أول ما يصدم حس القارئ المثقف ذلك الحوار الطويل الذي أداره الكاتب باللغة العامية على امتداد قصة حياته هذه» ، وتساءل : «ولا أدري ما الذي أعجبه في اللهجة العاميَّة حيث جعلها مدار كتابه في كل حواراته ، وهو الكاتب القادر على تطويع المواقف لجعلها ألصق بالواقعية من خلال لغة فصحى وسطية مفهومة لدى الجميع ؟» ومضى يقول : «الكتابة بالعامية فيها تكريس للإقليمية ؛ لأن لكل إقليم أو منطقة لهجتها الخاصة بها، واللغة العربيةهي التي تتسع لاستيعاب كل الأفكار وجميع الأحداث ويفهمها كل ناطق بالعربية على امتداد العالم العربي وما تجاوزه من الناطقين بالعربية» . وراح يفتش عن الأسباب : «ولست أعلم تعليلاً مقنعًا جعله يدير الحوار باللهجة العامية التي ليس لها ثبات، فهي تتغير من جيل إلى جيل، وتختلف من إقليم إلى إقليم ... وكان من المفترض أن يوضح هذه الغاية في مقدمة الكتاب ، وما هي المبررات والأسباب التي دعته إلى الإسهاب في هذه العامية ؟ إن كان يقصد الواقعية فإن بإمكانه بلوغها بالفصحى من خلال لغة سهلة يدركها كل قارئ للكتاب» .

وانتهى إلى القول : «القارئ في ذاته يدرك معاني الفصحى ومراميها ، ويفهم غايتها ومقاصدها ، وليس هناك ما يسوغ تقريبها لفهمه بالعامية ، والعامي لن يقرأها حتى لو كتبت بعاميته لتعذر ذلك عليه» (٣٧) .

على أنه قد حاول كاتب آخر وهو زهير السباعي أن يناقش هذه المسألة ، ولكنه لم يوفق إلى تسويغها ، حيث قال : «... لا يكتمل الحدث عن كتاب الأستاذ عزيز ضياء إلاّ بالتعرض لقضية اللهجة العامية ... [ففي] جانب كبير منه يروي المؤلف ذكرياته على هيئة حوار باللهجة الحجازية» ، وتساءل : «هل هذا هو الوضع الأمثل ؟» وأضاف : «لست أدري ؟ ولا أدعي أني أملك عشرات القصص والروايات ، وبصرف النظر عما يدور حولها وحول توجهاتها من آراء ، فإن قدرته الفذة على التعبير لا مراء فيها ... كل كتاباته باللغة العربية الفصحى حتى لتكاد تخالها لسلاستها أنها عامية»، وانتهى إلى محاولة تقرير السبب من وجهة نظره : «إذا كان الهدف من الحوار باللغة العامية هو تسجيل التراث ، فإني أراه مبررًا قويًا يؤخذ به [كذا] ...» (٣٨) .

ولعل من المؤسف أن هذا السبب الواهي هو الذي يتعلق به عزيز ضياء ، وآية ذلك إجابته عن سؤال للباحث بهذا الخصوص ، حيث قال مسوغًا استخدام اللهجة العامية في الحوار : «... أما اختيار العامية في الحوار فلأني حاولت أن أكون المدون للهجة (أهل المدينة) في تلك الأيام، وفي ظني أن ذلك رصد لنوع من التراث لا أستبعد أنه قد ضاع الآن» (٣٩) .

وليس بخاف أن هذا المسوغ يحمل مغالطة كبرى ، ومفهومًا قاصرًا لما تعنيه كلمة «التراث» ، فمتى كانت اللهجات العامية تراثًا نعتز به ونعطيه هالة من الاهتمام خوف اندثاره ؟

وإنه لمن المؤسف أن مفهوم التراث لدى كثيرين

من المهتمين بالشعر العامي قد اتسع بحيث «شمل النماذج القديمة والمعارة من هذا الشعر ، مع أن الاصطلاح يقتصر على الموروث الفكري للأجداد» . ومن المؤسف كذلك أنه لا «يذكر التراث الآن إلاّ ويتبادر إلى أذهان العامة التراث الشعبي، مع أن هذا التراث ما هو إلا جزء ضئيل من تراث العربية الخالد ... والأولى توجيه الأذهان والانتباه إلى تراثنا العربي القديم الذي يمثل ثروتنا الفكرية الحقيقية» (٤٠) .

والحديث عن الحوار بين الفصحى والعامية يقود بالضرورة إلى النقاش الذي طالما تردد بين نقاد القصة والمسرحية حول لغة الحوار، ففي حين رأى بعضهم ضرورة أن يكون بالفصحى، رأى آخرون أنه لا مانع أن يكون الحوار خليطًا بين الفصحى والعامية (٤١) .

وفي رأيي أنه لا وجه للمفاضلة بين اللغة الفصحى واللهجات العامية، فليست الفصحى بعاجزة عن النهوض بمهمة الحوار، وبإمكان الأديب أن يختار من الكلمات أسهلها وأيسرها، ليكون الحوار مبسطًا مفهومًا لمتوسطي الثقافة ومن دونهم .

صورة المكان

المكان لدى عزيز ضياء متمدد جغرافياً : في المدينة فدمشق، فحماة، ثم حلب، فالمدينة مرة أخرى. وهذه الأمكنة يمكن وصفها بالخارجية، أما الداخلية التي تتكثف فيها الأحداث فهي داخل البيت بحجراته وأثاثه.

ولقد عني بوصف الارتباط النفسي بالمكان، وأثر ذلك في الارتياح من عدمه، فقد يكون المكان جميلاً، ولكنه يتحول إلى مكان كئيب إذا كانت نفسه مضطربة، فنراه يتساءل في حوار داخلي مع نفسه ليلة زواج أمه وهو مستلق على سرير فخم في غرفة أنيقة: «هل تنتهي غربتي بالعودة إلى بيتنا؟ ومع من؟ مع هذه العجوز .. كلا! المسألة، أو هي المشكلة، أو هي الغربة التي أعيشها في هذه اللحظات ليست في المكان، وليست أني مستلق على السرير في هذه الغرفة، وإنما هي في أن أمي قد تركتني وحيداً وذهبت هي لتنام مع زوجها...» (٤٢) .

لقد أطبقت عليه الغربة النفسية بخناقها، وهو يرى أمه تستدير وتخرج من غرفته إلى غرفة أخرى وتتركه وحيدًا بلا أنيس، وهي التي لم تفارقه قبل ذلك في ليل أو نهار؛ لذلك أصبح المكان موحشًا، وصار فيه - كما يصف نفسه- «وحيدًا.. غريبًا.. ضائعًا في جوف المجهول الذي بدا لي كأنه طريق يمتد إلى ما لا نهاية، بل المجهول الذي حددت معناه بوضوح هذه الاستلقاءة على السرير الغريب، الذي لم يسبق لي قط أن نمت على مثله، وفي هذه الغرفة التي أطبقت عليّ جدرانها ... » (٤٣) .

فحتى الأثاث أصبح يتعامل معه وكأنه شيء غريب يحتاج إلى وقت ليمد معه جسور الألفة والمعرفة، ومن هنا يتجلى صدق التحليل النفسي لدى عزيز ضياء في تجسيده لقوة الصراع بينه وبين المكان الذي تمثل له شيئًا مرعبًا تنفر منه نفسه.

ويمتلك ضياء دقة الملاحظة ونزعة الاهتمام بالتفصيلات، يقول :

«وكان الطريق من زقاق الطوال في الساحة إلى المنطقة التي تسمى (مقعد بني حسين) طريقًا لا يستغني عن دليل لمن يذهب إليه لأول مرة مثلي... كان لابد من اجتياز ما يسمى (سوق جوة المدينة)، وفي نهايته مخرجان أعرف أحدهما الذي ينتهي إلى باب المصري، ثم منه إلى سوق الحبابة، ثم إلى المناخة. أما المخرج الثاني فهو الذي تكثر فيه المنعطفات والأزقة الصغيرة الضيقة، وبعضها مسقوف ومظلم، وكل ما يضيء الطريق فيه ذلك الضوء الذي يتسلل ضعيفًا أبلغ الضعف من مخرجه بالنسبة للداخل» (٤٤) .

فنحن أمام كاتب مصور يحاول أن يصف المكان بدقة متناهية ومن زوايا متعددة، فلا يكتفي بعنصر الوصف المجرد، ولكنه يسعى إلى إضفاء عنصر اللون، فالضوء في هذا الطريق خافت ضعيف «أبلغ الضعف»، ولا يظهر في كل جوانب الطريق، وإنما هو يشاهد عند المخرج «بالنسبة للداخل».

وفي موضع آخر من سيرته يقول: «كانت أرض الدهليز الواسع تتصدرها (دكة) طويلة عريضة، وكانت الأرض نفسها مبلطة ملساء بيضاء اللون... ثم هناك الباب من الدهليز إلى (فسحة) واسعة في صدرها باب مفتوح على مصراعيه نرى عبره (البستان) و (البركة) ممتلئة ماء يعكس ضوء الشمس وظلال الأشجار» (٤٥) .

ويرسم لهذا البيت صورة أخرى غير ما سبق التقطها من زاوية أخرى غير تلك، فيصف جدرانه وسقوفه، لتكتمل اللوحة للناظر، فهناك «الأجزاء الخشبية كالأبواب والنوافذ و(الرواشين) والأجزاء التي تسمى (الشيش)، وهو المخرّم الذي يسمح بدخول الهواء، وأن يرى من بالداخل الشارع، أو الزقاق دون أن يراه أحد من المارة، وهذا عدا الزجاج الذي يفتح للهواء ويغلق... أما الدرج من الحجر الأسود – ولا أدري لماذا لم تكن من المرمر كالدهليز؟ – أما هذه الدرج فقد كانت تنظف مرات ومرات» (٤٦) .

إنها محاولة لنقل صورة متحركة عن المكان فهذه (الشيش) تسمح بدخول الهواء ، وكذلك الزجاج يفتح للهواء ويغلق، أما الدرج فهي تنظف مرات ومرات، ومن هنا تبرز القدرة الفائقة على الوصف بإضفاء عنصر الحركة على المكان بحيث يبدو للقارئ وكأنه يشاهده لحظة الوصف بالفعل .

وتلح عليه نزعة الأصوات التي كانت تتردد في ذلك المكان: «ولم يكن هذا هو الوحيد الذي أخذ يعلن عن فتح الباب على السلعة التي يعرضها للبيع، إذ ما هي إلاّ لحظات أو دقائق حتى امتلأت ساحة الحراج، ليس بالجمهور الكبير من الناس، وإنما أيضًا بصيحات هؤلاء الذين يعرضون الأمتعة للبيع ...» (٤٧) .

فاستخدامه لفعل المضارع (يعلن، يعرضون) أضفى على صورة المكان الحيوية والحرارة المستفادتين من دلالة الفعل المضارع على التجدد والحدوث .

وإخباره عن ازدحام المكان بوجود أصوات تتعالى هنا وهناك أسبغ على المكان خصيصة الصوت، في محاولة منه لإشباع غريزتي: النظر والسمع على السواء .

وثمة ناحية نفسية استطاع عزيز ضياء أن ينقلها ويسجلها بمهارة، وهي المرء يخالجه شعور بازدحام المكان – ولو لم يره – من خلال كثرة الأصوات واختلاطها. وحين يخبرنا الكاتب هنا بأن هناك جمهورًا كبيرًا من الناس، وأن هناك صيحات تتعالى للتحريض على بيع السلع، فهذا منتهى الإقتاع للقارئ بأن المكان الذي يصفه مزدحم جداً بالفعل.

الجانب الاجتماعي في سيرة عزيز ضياء

تأخذ الموضوعات الاجتماعية عند عزيز ضياء نصيب الأسد من اهتمامه، حيث تحدث عن الجوع الذي قاساه في الثلاثينات الهجرية من القرن الماضي إبّان الحرب العالمية الأولى، وتحدث عن بعض المعتقدات والمفاهيم السائدة آنذاك في المجتمع المدني، كما عُني بوصف الأسواق والمساكن وأنواع الملابس الرجالية والنسائية المعروفة في تلك الحقبة، وتطرق إلى بعض العادات السيئة المنتشرة في ذلك المجتمع.

ولقد قدّم صورة أمينة لمجالس النساء وكيف كن يقضين أوقاتهن، ووصف طابع أحاديثهن، وطريقتهن في ترتيب البيوت وتنسيقها والعناية بنظافتها، وقد أتيح له الاطلاع على ذلك بشكل مباشر في طفولته لملازمته الطويلة لوالدته، فلا يكاد يفارقها في ليل أو نهار؛ لأن أباه سافر وعمره تسعة أشهر ولم يعد .

وقد سبَّب له هذا الوضع ضيقًا وتبرمًا حين يرى الأبناء من لداته يمشون مع آبائهم، وهو مع أمه تقوده إلى (قفص الحريم) – كما يُعبِّر – .

وتأخذنا الشفقة عليه وهو يروي معاناته مع الجوع الذي يرى كل بلاء يهون بالنسبة إليه يقول: «لم يكن هزيم القصف والانفجارات وحده هو الذي نعايشه، أو نكابد الخوف والرعب منه، وإنما كان هناك ما لابد أن أقول اليوم: إنه البلاء أو المصيبة التي ربما يهون بالنسبة إليه كل بلاء ... إنه الجوع» (٤٨) .

ويخلص إلى القول: «كان الجوع شيئًا ما أزل أقول حتى اليوم : إنه أخطر ما يتعرض له الإنسان من مصائب وكوارث» (٤٩) .

وفي حلب إبان الحرب كان عزيز ضياء يرى الناس أشبه ما يكونون بالهياكل العظميَّة نتيجة الجوع، فالعظام ناتئة، والعيون محملقة غائرة، والوجوه صفراء ، والأعناق رفيعة تكاد تنوء تحت الجماجم (٥٠).

وقد أتاحت له ملازمته الدائمة لأمه ليلاً ونهاراً أن يتعرف عن قرب على المجتمع النسائي، وأن تتكشف له أسراره وخباياه على الرغم من أن هذا الوضع الذي لم يكن له خيار تجاهه كان يُصيبه بالغيظ والحنق ، يقول :

«افترستني حالة أخرى ليست وهمًا، وإنما هي انفعال صاخب عاصف ينتابني... ، وهو الغيظ، أو ربما الحقد على الأطفال من سني الذين كنت أراهم يمسكون بأيدي آبائهم حين نذهب للصلاة في الحرم بينما أنا أمسك بيد أمي... أنا فقط الذي أمسك بيد أمي وهي تمشي بي إلى (قفص الحريم) بينما الأولاد كلهم على الحصوة مع الرجال مع آبائهم!» (٥١) .

وبسبب هذه الحالة التي افترسته - كما يعبِّر - نظر إلى الحياة المترفة جداً التي كان يعيشها في منزل زوج أمه الثري نظرة فيها عدم الرضا والارتياح؛ لأن هذه الحياة المترفة لا تمنحه الحرية التي ينشدها ويراها في ممارسة العبث والصحب مع أقرانه الصغار، وإلا فما الذي يجعله يزهد في هذا الترف، ويتطلع إلى أن يركب حماراً وينطلق مع صديقه يحيى دون علم أهله إلى ضواحي المدينة للترفيه والانطلاق من أسر الكتاب ؟

ومن أجل هذه الرغبة العارمة (ركوب الحمار) نفذ خطة للهرب من الكتاب: «... ونفذت الخطة كما رسمتها ... وانطلقت وقلبي يكاد يقفز من صدري فرحًا بتحقيق أملي الذي عايشته أيامًا وليالي وأنا على الفراش الوثير... ووصلت المناخة حيث رأيت الحمير والعربات ... وتقدمت إلى رجل له تلك الهيئة التي أعرفها لمن يسمَّى (الحمَّار)، وقلت له :

- أبغا أستأجر حمار يا عم ؟
- وفين تبغا تروح بو ؟
- أتمشى!» (٥٢) .

وهذه الحادثة اليسيرة تطلعنا على اهتمامات الأطفال قبل ثمانين عامًا أو أكثر، وكيف كان الحمار وسيلة تسلية وترفيه لهم، كما تطلعنا على قضية تربوية مهمة، ألا وهي حاجة الأطفال إلى اللهو البريء، وضرورة توفيره لهم في جو من المراقبة غير الصارمة، ليتمكنوا من التنفيس عن رغباتهم وحاجاتهم الذاتية في تلك السن المبكرة دون فرض نظام صارم يحرمهم من ذلك، ويفرض عليهم أن يعيشوا بأسلوب الكبار وتفكيرهم .

وقد نقل عزيز ضياء لقرائه بمهارة ودقة ملاحظة وصفًا لأنواع من المآكل والمشارب التي رآها في طفولته تدل على رقي وترف ، منها «التعتيميَّة» التي تشير إلى اعتياد المجتمع النسائي على السهر بعد العشاء لتناول هذه الوجبة وهي « ألوان من الجبن والزيتون والمربا و (الشريك أبو السمسم) ومع ذلك أطباق طافحة بالعنب والرمان الرطب، وهي تقدَّم في السهرات بديلاً للعشاء» (٥٣) .

ويذكر بعض العادات المتداولة آنذاك، والتي تحدِّد أماكن جلوس الكبار والصغار في المجلس، كقوله: «كنت أنا أتساءل بيني وبين نفسي: أين يا ترى ينبغي أن أجلس؟ .. لم أكن أعرف الأصول التي تعلمتها مع الأيام، وهي أن أجلس بعيدًا عما يصطلحون على أنه (الصدر)، وهو دائمًا لـ (الكبار) وللضيوف، أما الأطفال فلا مكان لهم إلاّ هناك بالقرب من الباب !» (٥٤) .

ويتحدث ضياء عن بعض الأساليب التربوية التي يحرص الآباء والأمهات على تلقينها للأبناء ، وتتمثل في قوله: «كانت حكاية طاعة الكبار هذه تترسخ في نفسي بتوجيه - كثيراً - ما يكون شرسًا غاضبًا إذا لاحظت أمي أن واحداً، أو واحدة من هؤلاء الكبار قد طلب مني شيئًا فتجاهلته أو غفلت عنه...» (٥٥) .

وبعد، فإنني من خلال استقرائي لمعظم الأعمال التي أنتجها الأدباء السعوديون في جنس السيرة الذاتية، أرى أن «حياتي مع الجوع والحب والحرب» في مقدمة الأعمال الناضجة في هذا الفن من أدبنا السعودي .

الهوامش والمراجع

١ - مجلة **اقرأ**، ع٥٥٥، ٦/٥/١٤٠٦هـ، ص٣١.

٢ - المصدر السابق نفسه والصفحة ذاتها .

٣ - كنت شخصيّاً على اتصال بالمؤلف وبمدير دار البلاد التي تولت طباعة الكتاب منذ شروعها في الطباعة أواخر عام ١٤١٣هـ وحتى شرائي لنسخة من الكتاب فور وصوله مكتبات الرياض في رمضان ١٤١٤هـ.

٤ - عزيز ضياء، **حياتي مع الجوع والحب والحرب** -ط١.- جدة: دار البلاد للطباعة والنشر ومؤسسة الشرق الأوسط للإعلان والثقافة والنشر، (د. ت)، ١٨/١.

٥- المرجع نفسه ٢٤٤/٢، ٢٤٥.

٦ - المرجع نفسه ١ /٢٦٤.

٧ - يقول عزيز ضياء : «لست أدري ما الذي جعل "روسو" يغشى قحف جمجمتي وأنا أتأهب لكتابة هذه الفصول من قصة حياتي.. أتراني أحسست أن بين اعترافات روسو وبين قصتي وجوه شبه من نوع ما؟ ولكن كيف؟ إن روسو يعترف، وأنا أقص». (**حياتي مع الجوع والحب والحرب** ١٩١/١).

٨ - ينظر: **معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب** ١٨٤.

٩ - المرجع السابق ١٨٣.

١٠- انظر: **حياتي مع الجوع والحب والحرب** ٦٢/٢، ١٩٥.

١١- **معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب** ١٨٣.

١٢- «أدب السيرة الذاتية»، مجلة **الفيصل**، ع٦٧، محرم ١٤٠٣هـ، ص٧٦.

١٣- **حياتي مع الجوع والحرب** ١٣١/١. وعنوان هذا الفصل «خروج أمي تحت القصف لتأتي بالطعام بعد أن سقط جدي من الإعياء». ولفظ الجلالة لم يكن موجوداً بالأصل.

١٤- الأمثلة أكثر من أن تعد، وانظر على سبيل المثال - المصدر السابق ٢٠٤/١.

١٥- **حياتي مع الجوع والحب والحرب** ١٩٩/١.

١٦- تقول إحدى الكاتبات: «لو كانت جائزة نوبل تعطى لمن يستحقها فعلاً، لكانت حقّاً للأستاذ عزيز ضياء عن "حياتي مع الجوع والحب والحرب". (انظر: شريفة الشملان. «العزيز ضياء بين الجوع والحب والحرب». مجلة **اليمامة**، ع١٣١٤، ١٤١٥/٢/١٢هـ، ص٦٧).

١٧- السَّحلب (بفتح السين): مادة نشوية تستخرج من بعض أنواع السحلبيات يتخذ منها شراب ساخن (ينظر: **المعجم العربي الأساسي** (لاروس). من مطبوعات المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ١٩٨٩م/ [١٤٠٩هـ]، ص٦١٢).

١٨- السفر بَرْلِك الاسم الشائع للدلالة على أحداث الحرب العالمية الأولى، وقد ذكر عزيز ضياء أنه لا يدري لماذا سموها بهذا الاسم (**حياتي مع الجوع والحب والحرب** ١٥٢/١). وقد سألت مسعد بن سويلم الشامان أستاذ اللغة التركية المشارك بكلية الآداب - جامعة الملك سعود - فأجابني قائلاً «سفر برلك Seferberlik التعبئة العسكرية العامة للجيوش، والتعبئة الاقتصادية وتهيئة الأمة للحرب. وأصبح هذا الاصطلاح يطلق على إعلان التعبئة العامة في الدولة العثمانية زمن الحرب العالمية الأولى، ثم صار يطلق على فترة الحرب العالمية الأولى». (رسالة من الدكتور مسعد الشامان تاريخها ١٤١٦/١/٩هـ).

١٩- باديشـاه Padisah : «لقب للسلطان العثماني أي الحاكم أو السلطان». (رسالة الدكتور الشامان). وانظر: **حياتي مع الجوع والحب والحرب** ١/٩٤.

٢٠- **حياتي مع الجوع والحب والحرب** ٢/٢٨، ٢٩ . ودحين تعني (الآن).

٢١- **حياتي مع الجوع والحب والحرب**، ١/٩٨. وفاطمة: اسم والدة الكاتب.

٢٢- وجّه الباحث سؤالاً للكاتب عن العامية فقال: «أما اختيار العامية في الحوار، فلأنني حاولت أن أكون المدوِّن للهْجة (أهل المدينة) في تلك الأيام..» . (أوراق بالآلة الكاتبة بتوقيع عزيز ضياء تاريخها ١٤١٥/٢/٣هـ، ص٣).

٢٣- له في مجال القصة: ماما زبيدة، قصص من طاغور (ترجمة)، النجم الفريد (قصص مترجمة). (ينظر: **معجم الكتاب والمؤلفين** ٩٣) .

٢٤- مصطفى حسين، **أدباء سعوديون** -ط١- الرياض: دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، ص٣٤٤.

٢٥- طه عبدالفتاح مقلد، **الكلمة المذاعة**. مكة المكرمة: المكتبة الفيصلية، (د . ت)، ص١٩٥.

٢٦- المرجع السابق، ص٢١٠.

٢٧- **حياتي مع الجوع والحب والحرب** ٢/٥٠. والحج: مخفَّفة من «الحاج» .

٢٨- **حياتي مع الجوع** ٢/٥٢. وفي الأصل: «أن يكون يحيى الليلية»؛ ولعله خطأ طباعي.

٢٩- المصدر السابق ٢ / ٥٥. ومعنى هذا الكلام بإجمال: ليس من المعقول أن تنتظري زوجك الغائب كل هذه المدة ولم يصلك خبر عنه.

٣٠- المصدر السابق ٢/٢٣٨.

٣١- المصدر السابق ٢/٦١.

٣٢- المصدر السابق ٢/٢٠.

٣٣- المصدر السابق ٢/٢٠. والمقصود زوج أمه.

٣٤- المصدر السابق ٢/١١٢.

٣٥- المصدر السابق ٢/١٨٧.

٣٦- المصدر السابق ٢/٢٦٤.

٣٧- مسلم بن عبدالله المسلم، «دراسة تحليلية لكتاب الأستاذ عزيز ضياء حياتي مع الجوع والحب والحرب». جريدة **الرياض**، ع٩٥٨١، ١٤١٥/٤/١٢هـ، ص١٣. ويظهر أن عزيز ضياء آثر العامية في الحوار؛ لأنها هي لسان من حوله، أو إدراكًا منه لثنائية اللغة: فهناك لغة فصحى سامقة، وهناك لهجة عامية يتحدثها معظم الناس الأمر الذي جعله يمزج بينهما.

٣٨- زهير أحمد السباعي، «في ركني». جريدة **المدينة**، ع١١٣٥٩، ١٤١٤/١١/٢٦هـ، ص٩. وفي الأصل: «وفي جانب كبير...».

٣٩- أوراق بالآلة الكاتبة بتوقيع عزيز ضياء تاريخها ١٤١٥/٢/٣هـ، ص٣.

٤٠- أحمد الضبيب، **أوراق رياضية** -ط١- الرياض: مؤسسة اليمامة الصحفية، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م، ص٩٩.

٤١- ينظر: حسين القباني، **فن كتابة القصة** -ط٣- بيروت: دار الجيل، ١٩٧٩م، ص١١١.

٤٢- **حياتي مع الجوع والحب والحرب** ٢/١٣٣. وقد وصف هذه الغرفة قبل ذلك بقوله: «فوجدت نفسي - وللمرة الأولى - أنام وحدي على سرير في غرفة حسنة الأثاث» (المصدر السابق ٢/١٣١، ١٣٢).

٤٣- المصدر السابق ٢/١٣٣.

٤٤- المصدر السابق ٢/٢٠٩.

٤٥- المصدر السابق ٢/٢١٠.

٤٦- المصدر السابق ٢/٢١٦.

٤٧- المصدر السابق ٢/٢٠٤.

٤٨- المصدر السابق ٢/١١٥.

٤٩- المصدر السابق ٢/١١٦.

٥٠- المصدر السابق ٢/٩٢.

٥١- المصدر السابق ٢/٦٢ .

٥٢- المصدر السابق ٢/٢٥٣.

٥٣- المصدر السابق ٢/٣١. والصواب أن يقول: «المربَّى»، «بديلاً عن العشاء».

٥٤- المصدر السابق ٢/٢٢.

٥٥- المصدر السابق ١/٣٥.

عابد بن سليمان المشوخي
مركز الملك فيصل للبحوث
والدراسات الإسلامية - الرياض

المنجم في المعجم

للسيوطي

دراسة وتحقيق : إبراهيم باجس عبدالمجيد

السيوطي ، عبدالرحمن بن أبي بكر محمد/ المنجم في المعجم ؛ دراسة وتحقيق إبراهيم باجس عبدالمجيد - بيروت : دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م ، ٣٠٠ص .

كتاب في التراجم ذكر فيه المؤلف أسماء شيوخه الذين أخذ عنهم العلم رواية ودراية ، من تفسير ، وحديث ، وفقه، وعربية ، وغيرها . وقد ترجم السيوطي لـ (١٩٥) مئة وخمسة وتسعين شيخًا، ومن بين هؤلاء الشيوخ اثنتان وأربعون امرأة أخذ عنهن العلم من بين جميع مشايخه الذين أوردهم في هذا الكتاب . أي إن ما يزيد على خُمس مشايخه من النساء . ويقع الكتاب في ثلاث مئة صفحة من القطع المتوسط . وقد بدأه المحقق إبراهيم باجس عبدالمجيد بمقدمة ذكر فيها أن صنيع السيوطي في كتابه ليس بدْعًا بين العلماء ، فجلُّ العلماء السابقين جمعوا أسماء أشياخهم ، وترجموا لهم، وذكروا ما رَوَوْهُ عنهم في مختلف العلوم . وهدفُهم من ذلك أمران :

الأول : بيان أنهم أخذوا هذه العلوم ورووْها من صدور الرجال ، لا من سطور القرطاس فقط .

الثاني : المحافظة على ما اختص اللهُ به هذه الأمةَ من علم الإسناد ، الذي فيه حفظ الشريعة وبقاؤها ؛ وكما قال ابن المبارك - رحمه الله - «الإسناد من الدين ، ولولا الإسناد ، لقال من شاء ما شاء» ، ويقول الحافظ ابن حجر العسقلاني - رحمه الله - «الأسانيد أنساب الكتب» .

بعد ذلك ترجم المحقق لمؤلفِ الكتاب جلال الدين السيوطي، حيث ذكر اسمه وأسرته ، ونسبه، ومولده، وطلبه للعلم، ورحلاته، ثم تحدث عن سعة علمه، ثم مؤلفاته في فن التفسير، والقراءات والحديث وتعلقاته ، والفقه، والمؤلفات الأخرى التي تناولت العديد من الفنون والموضوعات المختلفة من لغة عربية ، وأصول ، وتصوف ، وتاريخ وأدب وغير ذلك . ثم ختم الترجمة بذكر تاريخ وفاة السيوطي .

وبعد المقدمة قام المحقق بوضع دراسة عن عنوان الكتاب وأصله ، والذي دفعه لهذا هو أنَّ للمؤلف أكثر من كتاب في الفن نفسه، فقد وضع السيوطي أكثر من معجم لشيوخه، ففي ترجمته لنفسه في كتابه «حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة» ذكر من بين مؤلفاته : «معجم شيوخي الكبير» ، ويسمى : «حاطب ليل وجارف سيل» ثم قام السيوطي باختصاره، وانتقى بعض المشايخ الواردين فيه، وأفردهم في معجم مستقل هو : «المعجم الصغير»، ويسمى «المنتقى» ، وقد ذكر المحقق أن للسيوطي ثلاثة معاجم، أولها : «حاطب ليل وجارف سيل» ، ويسمى «المعجم الكبير» ، و«المعجم الصغير» ويسمى «المنتقى» ، و«المنجم في المعجم» (وهو هذا الكتاب الذي نعرض له في هذه المقالة) والذي قام بتحقيقه إبراهيم باجس عبدالمجيد، وقد أشار إلى المصادر التي ذكرت المعاجم الثلاثة .

بعد ذلك تحدث المحقق عن المنهج الذي اتبعه السيوطي في كتاب «المنجم في المعجم» ؛ حيث رتب أسماء شيوخه على حروف الهجاء ؛ إلا أنه لم يلتزم

بذلك إلاّ في الاسم الأول للمترجم له ، أما الاسم الثاني فما بعده ، فلم يلتزم الترتيب فيه في بعض الأحيان . ومن أمثلة ذلك : الأرقام (٣) و (٤) و (٥) ؛ حيث أورد اسم أحمد بن عبدالله البكري ، ثم أحمد ابن إبراهيم بن محمد الحلبي، ثم أحمد بن أسد الأميوطي . فهناك تقديم وتأخير في ترتيب الأسماء هجائيّاً ، وقد علل المحقق ذلك بقوله : «ولعل سبب ذلك هو الإضافات والإلحاقات التي ألحقها فيما بعد ، حيث لم يضع كلَّ ترجمة في مكانها المناسب» .

وأقول: إنه بالإضافة إلى ذلك ، فإن المخطوطة التي تم تحقيقها هي نسخة المؤلف ومسوّدتُه أي إنها ليست النسخة المبيضة والمعدلة للمؤلف .

وفي بعض الأحيان يعتمد السيوطيُّ في ترتيبه لأسماء شيوخه على الحرف الأول من الاسم ، وقد أشار المحقق لهذا ، وضرب أمثلة لذلك ؛ ففي التراجم التي وردت في الأرقام (٤٢، ٤٣ ، ٤٤) ذكر السيوطي اسم خليل ثم خضر ثم خليل . وفي الحرف الواحد يبدأ أولاً بتراجم الرجال حتى إذا فرغ منهم، يأتي بتراجم النساء . بالرغم من هذا الترتيب أخلّ بالترتيب الهجائي ، ففي ذلك تقديم وتأخير في الأسماء .

بعد ذلك تطرق المحقق إلى منهج السيوطي في ترجمته لأشياخه، حيث لم يسر على وتيرة واحدة في الترجمة . وقد قسم أشياخه إلى ثلاث طبقات ، رمز للعليا منها بحرف (ط) ، والتي تليها (طب) ، ولمن دونها (طس) ، إلا أن الكثير من الأسماء المترجم لها خالية من هذه الرموز كما ذكر المحقق ، ولعل سبب ذلك أن المخطوطة مسوّدة المؤلف ولو أعاد المؤلف النظر فيها لأضاف الرمز لكل اسم ورد في كتابه .

وبعض التراجم رمز لها برمز (طص) بدلاً من (طس) ولعل هذا خطأ في النسخ .

وذكر المحقق أن السيوطي أسهب كثيرًا في بعض التراجم ؛ حيث استغرقت بعض الترجمات عدة صفحات ، بينما اختصر بعضها الآخر اختصاراً شديداً ، حيث لم يذكر إلاّ الاسم فقط ، أو زاد على ذلك قليلاً بذكر سنة الولادة أو الوفاة . وهذا شيء متعارَفٌ عليه في جميع كتب التراجم ؛ فبعض العلماء مشهورون، وبعضهم مغمورون ، ومنهم من له إنتاج علمي واسع ، ومنهم دون ذلك وهكذا ، فاختلاف الترجمة وعدم سيرها على وتيرة واحدة يعود إلى مكانة كل شيخ وعلمه وشهرته وإنتاجه العلمي ومعرفة السيوطي به . لذلك نجد المؤلف يذكر سني الولادة والوفاة لبعض أشياخه ، وبعضهم يذكر تاريخ وفاته فقط ، وبعض آخر لا يذكر شيئًا - وكما ذكر المحقق - «يدون ما وصل إليه علمه في هذا الباب، ونلمس ذلك من الإضافات والإلحاقات التي أضافها إلى مسوّدته فيما بعد» .

وبدراسة المحقق لكتاب السيوطي وأسماء شيوخه توصل إلى بعض النتائج المهمة منها :

أولاً - **التنوع المذهبي الفقهي** : فبالرغم من انتماء المؤلف للمذهب الشافعي ، إلا أنه أخذ العلم عن علماء كثيرين يعتنقون مختلف المذاهب الفقهية الأخرى ومن أشهر شيوخه الشُّمُنّي المتوفى سنة ٨٧٢هـ ، والكافيجي المتوفى سنة ٨٧٩هـ كانا حنفيي المذهب، وغيرهما الكثير. ومن شيوخه الذين اعتنقوا المذهب المالكي عبدالرحمن بن عبدالوارث ابن محمد ، نجم الدين المالكي المتوفى سنة ٨٦٨هـ، وعبدالغني بن محمد بن أحمد الطائي ، وعبدالقادر ابن أبي القاسم العبادي المتوفى سنة ٨٨٠هـ وغيرهم . ومن علماء الحنابلة أحمد بن إبراهيم الكناني المتوفى سنة ٨٧٦هـ ، وأحمد ابن عبدالله الكناني المتوفى سنة ٨٨١هـ ، وغيرهم. بالإضافة إلى علماء مذهبه .

ثانيًا – التنوع العلمي : فالسيوطي معروف بغزارة علمه وتبحره في كثير من العلوم، ففي ترجمته لنفسه قال : «ورُزقت التبحُّرَ في سبعة علوم» إلا أن كل مطَّلع على مؤلفات السيوطي يجد له مؤلفات في كثير من فنون المعرفة لا تقل إتقانًا عن الفنون التي أشار إليها . وقد تميز السيوطي بأخذه كل علم من مصدره ، فكما ذكر المحقق فقد أخذ السيوطي الحديث عن المحدثين – وجلُّ أشياخه منهم – وأخذ الفقه عن الفقهاء ، والميقات أو علم الفلك عن أهله ، والنحو عن النحويين ، وهكذا في مختلف فنون المعرفة كان يلجأ إلى الشيوخ المتخصصين في كل فن – إن صح التعبير – .

ثالثًا – التنوع المكاني : إذ لم يقتصر السيوطي – رحمه الله – في أخذه للعلوم على علماء بلده (مصر) فقط، فقد أتاحت رحلاته إلى مختلف الأمصار إلى لقاء الكثير من العلماء الذين أخذ عنهم العلم ، فمنهم المكيون أمثال : أحمد بن محمد ابن أحمد ، شرف الدين النويري خطيب المسجد الحرام المتوفى سنة ٨٧٥هـ . وأبي بكر بن أحمد ابن إبراهيم المكي، فخرالدين المرشدي المولود بمكة سنة ٨٠٣هـ . والمتوفى سنة ٨٧٦هـ. وغيرهم . ومن شيوخه المدنيين نذكر منهم على سبيل المثال : محمد بن إبراهيم الخُجندي الإمام بالمسجد النبوي الشريف والمتوفى سنة ٨٧٠هـ . ومن أشياخه الدماشقة : أحمد بن خليل بن أحمد، ابن اللبودي الدمشقي المتوفى سنة ٨٩٦هـ . ومن أشياخه المقادسة : محمد بن موسى بن عمران الغزِّي ، المقدسي المتوفي سنة ٨٧٣هـ . ومن أشياخه الحلبيون ، والطرابلسيون ، والشيرازيون ، والتكرور وغيرهم من أهل البلدان الأخرى . بالإضافة إلى ذلك نجد أن السيوطي كان يغتنم فرصة وجود علماء تلك الأمصار في بلاده (مصر)، حيث كان يلتقي بهم ويأخذ العلم عنهم .

رابعًا – التنوع الجنسي : لم يقتصر السيوطي – رحمه الله – في أخذه للعلم على الرجال فقط ، وإنما تعدَّاهم إلى النساء ؛ حيث نجد أن هناك اثنتين وأربعين امرأة أخذ عنهن العلم من بين جميع مشايخه الذي أوردهم في هذا الكتاب ، والبالغ عددهم مئة وخمسة وتسعين شيخًا ، أي إن ما يزيد على خمس مشايخه – الذين ذكرهم في كتابه – من النساء . وهذا دليل بارز على الدور العلمي الكبير الذي كانت تؤديه المرأة المسلمة في نشر العلم وفي مختلف فنون المعرفة ، وخاصة في العلوم الشرعية .

وقد ذكر السيوطي في كتابه «حسن المحاضرة» ١ / ٣٣٩ أن عدد شيوخه نحو مئة وخمسين شيخًا بينما قال الشعراني في كتابه : «الطبقات الصغرى» إنهم بلغو ست مئة شيخ .

وقد علق المحقق على ذلك بقوله : «ويبدو أن هذا العدد الذي ذكره الشعراني يندرج فيه أصحاب الطبقة الرابعة من الشيوخ الذين قال السيوطي : إنه لم يرو عنهم شيئًا» .

أما العدد الذي ذكره المصنف في «حسن المحاضرة»، فربما كان قبل ازدياد عدد مشايخه ، فهو في مسوّدته الأولى لم يترجم إلاّ لمئة وثمانية وستين شيخًا ، هم المذكورون في نسخة عارف حكمت ، بينما أضاف إلى مسوّدته لاحقًا سبعًا وعشرين ترجمة ، فبلغت عدة التراجم خمسًا وتسعين ومئة ترجمة .

والذي ذكره محمد بن شرف الدين الخليلي في «ثبته» كما ورد في فهرس الفهارس أنهم نحو مئة وخمسين ليس بصحيح ، وربما أنه اطلع على نسخة من كتاب «المنجم في المعجم» قبل أن يضيف إليها السيوطي ما أضاف ، فهو

- كأي مؤلف - يزيد في كتابه ويحذف ما لا يراه مناسبًا ، حتى يراه في أحسن صورة .

أما المصادر التي اعتمد عليها السيوطي في الترجمة لشيوخه فقد قسمها المحقق إلى خمسة مصادر هي :

أ - ملاقاته للشيوخ أنفسهم وأخذه عنهم ، واطلاعه على كثير من جوانب حياتهم .

ب - الاستدعاءات المقدمة من أصحاب التراجم إلى شيوخهم الذين أخذوا عنهم العلوم المختلفة أو أجازوهم .

ج - الطباق والسماعات والإجازات المدونة على ظهور الكتب والأجزاء .

د - المجاميع والأثبات التي دون فيها أصحابها تراجم شيوخهم كمجاميع الشيخ رضوان ومجاميع كمال الدين الشُّمُنِّي، وثبت البدراني .

هـ - أما تراجم الشيوخ غير المصريين ، فقد اعتمد فيها السيوطي على من عاصرهم من أهل بلادهم ، مثل تراجم المكيين الذي كتبهم له ابن فهد .

وقد اعتمد المحقق أثناء تحقيقه لكتاب «المنجم في المعجم» على نسختين : الأولى مسوّدة المؤلف ، التي اتخذها أصلاً للتحقيق ، ورمز لها برمز (ص) ، وهي محفوظة في دار الكتب المصرية تحت رقم (٥٢٦ تاريخ) . والثانية محفوظة في مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت بالمدينة المنورة، والملحقة بمكتبة الملك عبدالعزيز العامة بالقرب من الحرم النبوي الشريف .

وعندما بدأ المحقق في جمع المعلومات المبدئية عن كتاب «المنجم في المعجم» وجد أن النسخة المحفوظة في مكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة تقع في ٣٦ ورقة فقط . أما النسخة الموجودة بدار الكتب المصرية - وهي مسوّدة المؤلف - فقد أشارت فهارس المكتبة الخديوية وبعض المؤلفين المعاصرين الذين اطلعوا عليها مباشرة أنها تقع في ٢٧٣ ورقة مما شكّكَ المحقق في صحة البيانات التي ذُكرت عنها قبل أن يطلع عليها ، وقال : ربما تكون «المعجم الصغير» أو «المنتقى» المختصر من «المعجم الكبير»، أو تكون مسودة المؤلف فيها بياضات وفراغات كثيرة . وعند حصول المحقق على صورة من النسخة المحفوظة بدار الكتب المصرية اكتشف أن كتاب «المنجم في المعجم» يمثل ١٠٣ ورقات فقط من أصل المخطوط، الذي هو بخط المؤلف ، أما الأوراق الباقية ، فهي كتاب آخر للسيوطي نفسه بعنوان «نظم العقيان في أعيان الأعيان» وبخط يده أيضًا ، ولكن مقدمة هذا الكتاب ساقطة ، مما أدى إلى وقوع المفهرسين في خطأ الفهرسة وعدّوا المخطوط كله بعنوان «المنجم في المعجم» .

وقد قام المحقق بجهد كبير - يُحمد عليه - في تحقيق كتاب «المنجم في المعجم» ، إذ اعتمد على مسوّدة المؤلف التي احتوت على الكثير من الإضافات والإلحاقات الموجودة في حواشي النص وفي الجذاذات (الطيارات) الموجودة بين أوراق المخطوطة، بالإضافة إلى الشطب الكثير في النص، وتفكك كراسات المخطوطة وأوراقها ، مما أدى إلى اختلاط الأوراق ببعضها مما ترتب عليه تقديم وتأخير في التراجم ، وقد استطاع المحقق أن يُعيدَ ترتيب الكراسات والأوراق إلى وضعها الطبيعي ، ويضع كل إضافةٍ أضافَها المؤلف في مكانها المناسب، بالرغم من وجود عوامل طبيعية وبشرية كان لها تأثيرها في النص وفي الكيان المادي للمخطوط ؛ كالرطوبة وعدم وضوح التصوير في بعض المواضع من النص ، بالإضافة إلى إسراف المجلد في قص أطراف بعض الأوراق ، مما أذهب كثيرًا من الإضافات التي دوّنها السيوطي على الحواشي ، إضافة إلى أنه قد سقط الكثير من أوراق المخطوطة قبل تجليدها ، وقد بين المحقق ذلك في مكانه .

وقد ذكر المحقق مصادر ترجمة الشيوخ الذين أوردهم السيوطي ، والذين عثر لهم على ترجمة ، وخرَّج النصوص الواردة في الكتاب من آيات قرآنية وأحاديث وأشعار ، ثم علق على بعض المواضع من الكتاب وبين رأيه فيها . وفي نهاية الكتاب وضع مجموعة من الفهارس وهي:

١ - فهرس الأعلام المترجمين .
٢ - فهرس المؤلفات الواردة في متن الكتاب .
٣ - فهرس الأماكن والبلدان .
٤ - فهرس الشعر .
٥ - فهرس المصادر والمراجع .
٦ - فهرس الموضوعات .

وهناك بعض الملاحظات التي أحب التنويه إليها، التي سيتداركها المحقق - بمشيئة الله في الطبعة الثانية - وهي:

أولاً : لم يشر المحقق إلى أوراق كل نسخة من النسخ التي اعتمد عليها في التحقيق في هامش الصفحات سواء وجهها أو ظهرها .

ثانيًا : أشار المحقق في بداية الكتاب عند حديثه عن الأصول التي اعتمدها لتحقيق كتاب «المنجم في المعجم» في صفحة ٢٥ أنه اعتمد على نسختين : الأولى مسوَّدة المؤلف، واتخذها أصلاً ، ورمز لها بالرمز (ص)، وهي محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٢٦ تاريخ . والنسخة الثانية محفوظة بمكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة ورمز لها بالرمز (ع) إلا أننا نجد المحقق لم يلتزم بذلك ، حيث يشير أحيانًا إلى مسوَّدة المؤلف بـ «أصل المؤلف» كما ذكر في هامش صفحة ١٩٨ و ١٩٩ على سبيل المثال ، وأحيانًا بـ «أصل المصنف» كما هو في هامش صفحة ٢٠١ . فيفضَّل الالتزام بأسلوب موحد .

ثالثًا : ذكر المحقق أنه لم يعثر على ترجمة محمد بن أبي بكر المرشدي الذي ورد اسمه في صفحة ١٨٠ ، إلا أنَّ لهذا الشيخ ترجمةً وافية في كتاب «الضوء اللامع» ج ٧ / ١٧٩ - ١٨١ ، وورد اسمه فيه : محمد بن أبي بكر بن علي ابن عبدالله بن أحمد بن محمد بن إبراهيم البهاء ، أبو الفتح ، ابن الزين المشهدي القاهري الأزهري الشافعي ولد سنة ٨١١هـ، وتوفي سنة ٨٨٩هـ . إلاّ أن السخاوي في كتابه : الضوء ١٧٩/٧ ذكر لقبه المشهدي في حين ذكره السيوطي في «المنجم في المعجم» المرشدي.

رابعًا : لم يلتزم المحقق في كثير من الأحيان بضبط وشكل كلمات الأبيات الشعرية التي وردت في النص ، ومثل هذا الأمر مهم ويعد من ضروريات التحقيق .

خامسًا : اقتباس بعض المعلومات من بعض المصادر والمراجع دون الإشارة إلى عنوان المصدر أو المرجع ومؤلفه ورقم الصفحات المتقبس منها ، ومثال ذلك ما ورد في هامش الصفحات التالية : ١٥١، ١٦٣، ١٦٥، ١٨٥، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢١٣ .

سادسًا : في كثير من الأحيان يذكر المحقق في الهوامش عناوين للمصادر والمراجع التي اعتمد عليها دون الإشارة إلى رقم الجزء أو المجلد أو رقم الصفحة المقتبس منها انظر الصفحات التالية :
٤٧ ، ٤٨ ، ٥٧ - ٥٩، ٦٠، ٦٤، ٦٧، ٦٩، ٧٢ - ٧٥، ٩٥، ١٠٧، ١١٢، ١١٥ - ١٢٢ ، ١٢٨ ، ١٣٠، ١٣٣ ، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٨، ١٤٢، ١٤٦، ١٤٨، ١٥٣، ١٥٦ ، ١٥٧، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٤، ١٧٥، ١٧٨ ، ١٧٩، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٥، ١٨٧، ١٨٨، ١٩١،

١٩٢، ١٩٥، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١٢، ٢٢٣، ٢٢٦، ٢٣٨، ٢٤٠ .

سابعًا : ذكر أسماء بعض المؤلفين في الهامش دون ذكر عناوين كتبهم وأرقام الصفحات المقتبس منها . انظر على سبيل المثال هامش صفحة ١١٧ .

ثامنًا : الاستشهاد ببعض الآيات القرآنية دون ذكر أرقامها وأسماء السور التي وردت فيها ، كما ورد في الصفحات ٧، ١٣، ٣٧ . وكذلك الاستشهاد بحديث نبوي دون تخريجه ، كما ورد في صفحة ٣٧ .

تاسعًا : ذكر أسماء بعض المؤلفين في الهامش بعد ذكر عناوين كتبهم ورقم الجزء والصفحات المقتبس منها . ففي صفحة (٥٤) على سبيل المثال ذكر المحقق في الهامش كتاب «غاية النهاية في طبقات القراء» ١/٢٤١ لابن الجزري ، وكتاب «الدرر الكامنة» ١/١٠٠ لابن حجر. والأفضل أن يتم ذكر المرجعين السابقين على النحو التالي:

– غاية النهاية في طبقات القراء -. لابن الجزري -. ١/٢٤١ والدرر الكامنة لابن حجر -. ١/١٠٠.

عاشرًا : أما بالنسبة للمصادر والمراجع التي اعتمد عليها المحقق، التي ذكرها في نهاية الكتاب فنجد المحقق يذكرها على النحو التالي : عنوان الكتاب، واسم مؤلفه ، ودار النشر ، ومكان النشر ، وسنة النشر. والصواب أن يتم ذكر بيانات النشر لكل كتاب ورد في قائمة المصادر والمراجع على النحو التالي :

مكان النشر : اسم الناشر ، سنة النشر .

حادي عشر : ذكر المحقق بعض المصادر المحققة دون ذكر أسماء محققيها . انظر على سبيل المثال المصدر رقم (١١) في القائمة .

ثاني عشر : ذكر بيانات مختصرة لبعض المصادر بالرغم من وجود البيانات الوصفية الكاملة لها في صفحة العنوان . ففي المصدر رقم (٢٤) في قائمة المصادر ذكر المحقق .

ديوان ذي الرمة، تحقيق عبدالقدوس أبي صالح .

في حين أن البيانات الوصفية للكتاب موجودة في صفحة العنوان وهي :

– ديوان ذي الرمة -. غيلان بن عقبة بن نهيس ، ذو الرمة -. تحقيق عبدالقدوس أبو صالح -. دمشق : مجمع اللغة العربية ، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.

ثالث عشر : قام المحقق بوضع مجموعة من الفهارس للأعلام المترجم لهم والمؤلفات التي وردت في النص وللأماكن والبلدان ، والأشعار التي وردت في النص إلا أنه لم يضع لنا فهرسًا خاصًا بأسماء الأعلام الذين جاء ذكرهم في النص، ولعل عذره في هذا كثرة أعدادهم في النص مما يتطلب منه جهدًا كبيرًا ، بالإضافة إلى خوفه من أن يؤدي هذا إلى ضخامة الكتاب .

وبعد ؛ فهذه الملاحظات التي ذكرت لا تقلل من قيمة الجهد الكبير الذي قام به المحقق في إظهار وإبراز هذا الكتاب المهم في التراجم إلى النور . فالمحقق إبراهيم باجس عبدالمجيد من الشباب الطموح الذين لهم نشاط ملموس ومعروف في تحقيق الكثير من المخطوطات العربية ونشرها.

معارضات شوقي الشعرية : دراسة تحليلية

رسالة دكتوراه لسليمان بن عبدالرحمن الزهير

الزهير، سليمان بن عبدالرحمن / معارضات شوقي الشعرية : دراسة تحليلية .- رسالة (دكتوراه) .- إشراف محمد زغلول سلام .- بنها : جامعة الزقازيق ، كلية الآداب ، قسم اللغة العربية ، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م .- ٣٨٩ ورقة .

يدور موضوع هذه الأطروحة حول المعارضات الشعرية في شعر أحمد شوقي، دراسة تحليلية، وقد دفع الباحث إلى اختيار هذا الموضوع عدة أسباب منها :

أولاً : يعد شوقي عنوان النهضة الشعرية الحديثة، وحامل رايتها، وأهم أعلامها على الإطلاق، ومن ثم فإن دراسة شعر شوقي تعد دراسة لجانب مهم من جوانب النهضة الشعرية في أدبنا العربي الحديث .

ثانيًا : لم يكن شوقي شاعرًا تقليديًا بكل ما يحمله هذا المصطلح من معنى، وإنما كان مجددًا برغم سيره على طريقة القدماء في صياغته الفنية للقصيدة فهو - وإن عبر بأسلوبهم - فقد كانت له أفكاره العميقة التي تبدو للوهلة الأولى متفقة مع أفكار القدماء ، ولكن تعمق تلك الأفكار يكشف عن تجديد شوقي الشعري، وقد تبدي ذلك من خلال المقارنة بينه وبين غيره من شعراء الازدهار الشعري في العصر العباسي كأبي تمام والبحترث .

ثالثًا : مكانة شوقي باعتباره شاعر العربية الأول في العصر الحديث الذي وقف معبرًا عن قضايا العرب والمسلمين، وهمومهم وآلامهم، وآمالهم فكان شعره مرآة صافية ترتسم فيها قضايا المسلمين وطموحاتهم فوقف شوقي مدافعًا عن الإسلام وعقيدته عن يقين وإيمان صادقين ولم يكن كغيره من الشعراء المسلمين ، بل كان شاعرًا إسلاميًا سياسيًا أي إنه ناقش آراء غيره وخاصة في تلك الفترة من تاريخنا الحديث التي هبت فيها عواصف عاتية تريد النيل من الإسلام وأهله ، فكانت دعوات العديد من المستشرقين أمثال رينان وهانوتو وماسينيون وغيرهم الذين زعموا أن السبب الأساسي في تأخر المسلمين هو الإسلام، وزعموا أنه يدعو إلى التخلف والضعف والاستكانة، وأنه انتشر بحد السيف ، فوقف شوقي منافحًا عن الإسلام مدافعًا عن عقيدته ومفندًا آراء أعدائه، ومثبتًا حقيقة الإسلام الواضحة الجلية التي لا تحتمل الشك، وهي أنه دين أحيا الأمم الماضية، وكوّن أعظم حضارة على وجه الأرض في مدة وجيزة من الزمن، لم تتجاوز مئة عام، ومن ثم فقد كان شوقي مثال الشاعر الإسلامي الحق الذي يقف وراء الدين ينصره ويثبت خطاه أمام أعدائه وهم كثيرون .

رابعًا : وهو مرتبط بالسبب الثالث إلى حد ما، حيث أن دراسة شعر شوقي تعطي الباحث فكرة شاملة عن العصر بأكمله، فقد كان شوقي ابن عصره، عبر عن قضاياه السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية، ومن ثم فقد ظهرت صورة العصر كله في شعره .

لكل هذه الأسباب، وغيرها كثير، كان اختيار

الباحث لشعر شوقي موضوعًا لدراسته ثم كان اختيار شعر المعارضات عند شوقي على وجه الأخص، حيث تظهر فيه شخصية شوقي الشعرية، وبالتالي فإن هذا المنطق هو الذي أملى على الباحث طبيعة المنهج الذي سار عليه، فهو منهج يعتمد على المقارنة وتعمق النصوص، أكثر من اعتماده على السرد المباشر .

ويعترف الباحث بأن هناك كثيرين من الباحثين قد سبقوه إلى دراسة شعر شوقي ، وكان كل باحث يحاول قدر طاقته إبراز بعض جوانب التميز لدى هذا الشاعر .

ولقد حاولت هذه الأطروحة الكشف عن شخصية شوقي الفنية والفكرية وقد دار حول هذه الشخصية جدل متجدد وعميق وعنيف بين مؤيد لشوقي ومعارض له، وقد اتخذ المعارضون من الهجوم على شوقي وسيلة للتقليل من قيمته، وقد توصلت الأطروحة إلى مجموعة من النتائج أهمها:

لقد تعاطى شوقي المعارضة على امتداد حياته منذ بداية صياغته للشعر وحتى نهاية حياته، ولم تكن المعارضة لديه تقليدًا أعمى للقدماء وإنما كانت تجديدًا عميقًا وإن بدا تقليدًا .

وقف شوقي معبرًا عن قضايا العرب والمسلمين ، وهمومهم وآلامهم وآمالهم وكان شعره مرآة صافية ترتسم فيها قضايا المسلمين وطموحاتهم ووقف شوقي مدافعًا عن الإسلام وعقيدته عن يقين وإيمان صادقين ولم يكن كغيره من الشعراء الآخرين، ومن ثم فإن شوقي لم ينفصل عن عصره .

تناول شوقي موضوعات إسلامية تناولها البوصيري قبله، ولكن ثمة اختلافًا كبيرًا بين الشاعرين، فقد كان شوقي شاعرًا إسلاميًا سياسيًا يعتمد على الحوار والمناقشة والأخذ والرد والدفاع، شأنه في ذلك شأن السياسيين، أما البوصيري فقد كان شاعرًا روحيًا محضًا على إبراز الجوانب الروحية والدفقات الشعورية دون التركيز على مناقشة أعداء الإسلام في آرائهم والرد على تلك الآراء ودحضها .

وفي بناء قصيدة المديح النبوي سار شوقي في الطريق نفسه الذي سارت فيه المدحة النبوية فقد كان يبدؤها كغيره من الشعراء ويتحدث عن شخصية الرسول بوصفه شفيعًا ومثلاً أعلى .

عارض شوقي قصائد تاريخية مثلما عارض قصائد نبوية ، وقد كان في قصائده التاريخية ينطلق من فكرة أساسية وتقوم هذه الفكرة بتشكيل شبكة من العلاقات اللغوية تمتد لتشمل النص كله، وتهيمن عليه .

اللغة الشعرية عند شوقي في نسق من العلاقات والتراكيب والأنظمة ، وقد ظهر التوتر في البنية الإيقاعية وتواءم هذا التوتر الإيقاعي مع التوتر الشعوري ومن ثم التوتر في السياق التعبيري .

لعبت الطبيعة دورًا أساسيًا في تشكيل الصورة الشعرية عند شوقي فقد كان شوقي يستمد صوره من الطبيعة التي وجدناه كالأشخاص تتحرك وتنطلق في كل مكان، وارتبطت تلك الطبيعة بإحساس شوقي وشعوره فنجدها أحيانًا مبتهجة فرحة، وأحيانًا أخرى تبدو حزينة كئيبة ، وكان ذلك كله مرتبطًا بشعور شوقي وإحساسه .

أرى التاريخ كذلك دورًا أساسيًا في تشكيل الصورة الشعرية عند شوقي فتحدث عن التاريخ الفرعوني والإسلامي والحديث ، وقد عاش التاريخ في وجدان شوقي حيًا متحركًا ومؤثرًا .

تعددت الصورة الشعرية عند شوقي فكانت هناك الصورة التشخيصية والصورة الوصفية والصورة التجريدية والصورة الدرامية، ومن ثم فإن شوقي لم يكن يتبع مذهبًا معينًا في صوره .

استخدام الأطباء مصادر المعلومات في مكتبات المستشفيات في مدينة جدة

رسالة ماجستير لشعاع أبو عوف

أبو عوف، شعاع عيد / استخدام الأطباء مصادر المعلومات في مكتبات المستشفيات المختارة في مدينة جدة .- رسالة (ماجستير) .- إشراف محمد أمين المرغلاني .- جدة : جامعة الملك عبدالعزيز ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم علوم المكتبات والمعلومات ، ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م .- ١١٧ورقة .

اهتم هذا البحث بدراسة استخدام الأطباء مصادر المعلومات المتوافرة في مكتبات مستشفيات مدينة جدة بهدف التعرف إلى أسباب استخدام الأطباء مصادر المعلومات والمكتبات، وتحديد مصادر المعلومات التي يستخدمها الأطباء والوقوف على مدى ملاءمة الوضع الحالي لهذه المكتبات لتحسين خدماتها وتحقيق الأهداف التي من أجلها أنشئت هذه المكتبات .

اعتمد البحث على المنهج الوصفي الذي يهدف إلى رصد خصائص الموضوع مجال البحث وتحليله . حيث تم تحديد مجموعة من التساؤلات المرتبطة بأهداف البحث . وفي سبيل الإجابة عن التساؤلات ، حدد البحث مجتمع الدراسة ممثلة في أمينات المكتبات ، والأطباء العاملين في مستشفى الملك فهد العام، ومستشفى الملك عبدالعزيز، ومستشفى الملك فهد للقوات المسلحة ، ومستشفى الدكتور سليمان فقيه في مدينة جدة . وقد بلغ عدد الأفراد الذين شملهم البحث ٢٦٧ طبيبًا من مجموع ٤١٢ بنسبة ٦٤,٨٠٪ مستخدمًا في ذلك أسلوب العينة الحصية، وخمس أمينات مكتبات .

وقد تم جمع بيانات الدراسة باستبانة أعدت وفق الأسس العلمية، وكذلك وفق أهداف البحث . وقد توصلت الدراسة إلى النتائج التالية :

توافر المصادر الأساسية مثل الدوريات ، والكتب، والقواميس ، والموسوعات، والأدلة ، والأطالس ، والتقارير العلمية وبحوث المؤتمرات ، والمواد السمعية والبصرية في المكتبات التي شملتها الدراسة . أما الرسائل العلمية والمطبوعات الحكومية والمصغرات الفلمية لا توجد في بعض المكتبات . وعلى الرغم من أن هذه المكتبات ترتبط بمجال واحد هو المجال الطبي إلا أنها تختلف في نظم المعلومات المستخدمة في تنظيم أوعية المعلومات . وتتمثل المصادر التي يستخدمها الأطباء عينة البحث في الحصول على المعلومات بصفة أساسية في الدوريات المتخصصة ، والكتب الطبية ، ومطبوعات شركات الأدوية، والرسائل العلمية، والمواد السمعية والبصرية، أو النشرات الحكومية، ثم البرامج الطبية في الإذاعة والتلفزيون .

ولقد تبين من الدراسة أن ٦٤,٥٧٪ من الأطباء الذين شملتهم الدراسة ينتمون إلى أربعة تخصصات هي : الجراحة ، وأمراض الباطنة ، والأطفال ، والنساء والولادة وهؤلاء يستخدمون مصادر المعلومات أكثر من الأطباء العامين . كما أفاد ٥٣,١٨٪ من الأطباء الذين شملتهم الدراسة ممارستهم التدريس في كلية الطب والمستشفيات وهؤلاء يستخدمون مصادر المعلومات للاستعانة بها في مجال التدريس . وكذلك ممارسة ٤٩,٤٣٪ من هؤلاء الأطباء البحث العلمي واستخدام المصادر المتوافرة في المكتبة ، وعضوية ٦٠,٢٩٪ من هؤلاء الأطباء في الجمعيات العلمية والمنظمات والهيئات المتخصصة مما يتيح لهم فرصة الحصول على المعلومات . كما تبين من الدراسة تنوع الأماكن التي يتردد عليها هؤلاء الأطباء من أجل الحصول على المعلومات ، بحيث شملت المكتبات ومراكز المعلومات والجمعيات العلمية . ويواجه الأطباء بعض الصعوبات عند استخدامهم مصادر المعلومات بالمكتبات الملحقة بالمستشفى مجال عملهم منها : ضيق الوقت وتعارض وقت المكتبة مع وقت الأطباء ، وعدم وجود الوسائل الحديثة مثل الكمبيوتر ونقص البيانات عن المكتبات ومراكز المعلومات .